من هموم الحركة الإسلامية الشيعية

الغيبة والتغييب



تأليف: عباس بن يحيى

من هموم الحركة الإسلامية الشيعية

الغيبة والتغييب

الكتاب الأول في سلسلة: من "هموم الحركة الإسلامية الشيعية"

الطبعة الثانية

ربيع الأول ١٤٣١هـ - آذار ٢٠١٠م

■ الغيبة والتغييب

■ تأليف: عباس بن نخي

■ مراجعة وتصحيح: السيد محمد علي الحكيم

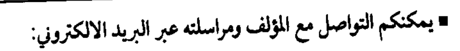
■ الطبعة الأولى: إبريل - نيسان ١٩٩٨م

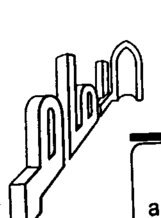
■ الحجم: 13X20 * عدد الصفحات: 175

■ صورة الغلاف من: Luciede Delkowa

■ طبع في لبنان - بيروت

■ التنضيد والإخراج الفني... والتنفيذ والإصدار:





■ يمكنكم التواصل مع المؤلف ومراسلته عبر البريد الالكتروني:

a.bennakhi@live.co.uk


بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم صل على محمد وآل محمد

الإهداء

إلىٰ الأوائل في حياتي...

■ إلىٰ ٱبن العمِّ الفقيد «مصطفىٰ» ﷺ، الذي عرَّفني بالكتاب، وحبَّبَ إليَّ المطالعة، ولازمَني في مقاطع الطريق ومنعطفاتها... فكان خير ناصر ومعين.

■ إلىٰ «أبي محمد»، الأخ العزيز... الذي جعلني أنفتح علىٰ الحركيَّة الإسلامية، فكانت تجربة، رغم مرارتها ومطبَّاتها، مفيدة، وضرورية لي، ومهمَّة لمسيرتي.

■ إلىٰ الخطيب الكبير العلَّامة السيد «محمد كاظم القزويني» ﷺ الذي رسَّخَ غرسَ الولاء في قلبي، وثبَّته بعفوية، كانت أبلغ حُجَّة وأتمَّ برهاناً، إذ ٱنطلقت من الفطرة...



المقدِّمة

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ﴾

يلجأُ بعضُ الكُتَّابِ إلىٰ "الرمزيَّة" إبداعاً وتفنُّناً، ويلجأ إليها بعضٌ آخر "تقِيَّة"، أي حذراً ومُواراة، أو هروباً مما يخشون الجهر به ويخافون كشفه. أما أنا، فعندما يخذلني التعبير، حين تضيق عليَّ الدروب، وتنقطع السُبُل، وتخلو اليد من حيلة...

يمتلئ الصدر ويفيض الخاطر، ولـٰكن عيَّ اللسانُ ولَكِن البيان، ليغدو المنطق ما قاله «شوقي»:

وعندي الهوىٰ مَوْصُوفُه لا صِفاته

إذا سألوني ما الهوىٰ قلتُ ما بِيَا

تتعطَّل اللغة، وتعجز العبارة... فألوذُ بـ "الرمزية".

❖ ❖ ❖

كمَن تعثَّر في سوق شرقيَّة قديمة، ٱمتدَّت لها يَدُ المَدَنيَّة بعشوائية مُضحكة، جعلتها مزيجاً يصعب معه الحكم بأنها تعود للعهد العثماني، كما ستندب العمارة العصريَّة الحديثة حزناً، وتضجُّ ٱعتراضاً ورفضاً إن نُسِبَت إليها وعُدَّت في عِدادها!

سوقٌ مكتظَّة بالناس والآلات والبضائع والأصوات، الأصوات التي طَغَتْ علىٰ كلِّ شيء، فكأنها الحاكم المطلق والمهيمن القويُّ هنا!... يغطِّيها علىٰ ٱرتفاع شاهق سقفٌ تنفذ فيه الشمس بأشعَّتها، كَمُتوغِّل غير مُزعج، من خلال فجوات أُعِدَّت لِبعض التهوية، وثقوب صنعتها رصاصات طائشة، في وَضع يذكِّرُكَ بأبياتٍ لـ «المتنبي» يصف فيه تخلل أشعة الشمس للأغصان وأوراق الشجر في «شِعْبِ بوَّان» (وهي واحة جميلة في «فارس» مَرَّ بها الشاعر فأنشد):

طَبَتْ فُرسانُنا والخَيلُ حتىٰ
خَشيتُ وإن كَرُمنَ مِنَ الحِرانِ
غَدَونا تَنفُضُ الأَغصانُ فيها
علىٰ أَعرافِها مِثلَ الجُمانِ
فَسِرتُ وقَد حَجَبنَ الشَمسَ عَنِّي
وجِئْنَ مِنَ الضِياءِ بِما كَفاني
وألقىٰ الشَرقُ مِنها في ثِيابي
دَنانيراً تَفِرُّ مِنَ البَنانِ

وكان قد صدَّر قصيدته هٰذه بأبياتٍ أشارَ فيها إلىٰ غُربته في تلك الديار، فقال:

مَغاني الشِّعْبِ طيباً في المَغاني
بِمَنزِلَةِ الرَبيعِ مِنَ الزَمانِ

ولكن الفتىٰ العَرَبِيَّ فيها
غَريبُ الوَجهِ واليَدِ واللِسانِ

آهٍ من الغُربة ولها!
أيشكُو «المتنبي» من غربة الديار؟...
كيف إذاً بغُربة الروح، لا الوجه واليد واللسان...

غرْبة السَّهِد الذي ما اكتحل غِمْضاً في إقليم الهجوع والرقاد، ووَحْدَة الألمعي اللبيب في دنيا الحماقة والبَلَادة، ووَحْشة الأنوف الحميِّ في عالم الخنوع والضَرَاعة؟!

كمَن تعثَّر في هٰذا المعترك، المسمَّى بـ "السوق"! فسقط ملَفٌّ يحمِلُه، وانفرطَتْ محتوياته (الأوراق) وتبعثَرَت نهب أقدام المارَّة وأحذية المشاة... وتطاير بعضها ليصبح طُعمةً لعَجل المركبات، عربات ودرَّاجات، بل لحوافر حمار يسوقه طفلٌ هناك... أمام دكان سمانة، يحمِّله "جبلاً" من أباريق بلاستيكية مُعدَّة للاستعمال في المراحيض، راحَ يحتال علىٰ قِصَر الحبل وعجزِه عن الإحاطة بـ "الجبل"، بهمَّة عتَّال ساعَده علىٰ شدِّه، أي علىٰ مزيد من حَزِّ بطْن الدابة!

وبينا الذهول يعقد تفكيره بعد أن ألجمَ لسانه، ويلقيه في دوامة من الارتباك، عارَضه كتفٌ، خالَه في البداية بَغْلاً، فتبيَّن أنه لـ "إنسان" يحمل الصفة والشكل والهوية، طرَحَه أرضاً وألحقه بأوراقه المبعثرة.

آخر ما فكَّر فيه هو الصراخ وطَلَبُ النجدة! ولا سيَّما أنَّ وَقعته جاءت قُرب بساط افترشَه أحدُ الباعة المتجوِّلين، يعرض عليه بعض السكاكين والمُدَىٰ المستعملة، إلىٰ جانب آلة يدويَّة يحدُّ بها ويشحذ الشفرات، وراح ينادي علىٰ بضاعته أو صنعته، بصوتٍ أقربَ إلىٰ أزيز آلته، وقد التقت بسكين فتطاير منها الشرار...

راحَ يحبُو بين الجموع، تركُلُه قدمٌ هنا وتدوسه أُخرىٰ هناك، تصدمه في الجبين ركبةٌ فولاذيَّة مكوَّرة، وتخبِطُه علىٰ القفا حقيبة تتهادىٰ في يَدِ صاحِبها كأنَّها في أُرجُوحة...

وعندما "أمسك" بإحدىٰ أوراقه التائهة، وظنَّ أنه تمكَّن منها وقدر أخيراً عليها، جاءه من "الأمر" ما خلَط عليه الليل بالنهار!... "كبَسَهُ" شيءٌ أنفَذَ حُبيبات رمل الطريق ومَدَره في كفِّه، كمِكواة البخار وهي تهوي علىٰ صفحة القماش، تفعل في كُلِّ جزءٍ من راحته لَسْعاً وحرْقاً وكَيّاً وكأنَّها تتلقَّى أعقاب السجائر، يغرسها مُدخِّنٌ شَرِهٌ ليهمدها ويُطفئ جمرتها...

وَجَدَها "جزمة عسكريٌّ"، لا تَسَلْ عن مقاسها، فقد جاء الرجل يبحث عمَّن يفصِّل له سروالاً في هٰذه السوق، إذ عجَزَ "الجيش" عن توفيره لمن في حجمه ووزنه!

وقد وضَعَ الفصلَ الأخير لهٰذه "الدراما"، أو قُلْ ضَرَبَ النغمة المَزيدة في معزوفة هٰذا الطنبور، "شيخٌ"، ما أبقَتْ السبعون في فمه من الأسنان إلّا ثلاثة، توزَّعت في لِثَّتيه منفردة متباعدة وكأنَّها في خِصام! اثنتان في اللِّثة السفلىٰ، وواحدة في العليا، وقد اسودَّت كُلُّها بعد اصفِرار، فما عاد سِواكٌ يُسعِف ولا فِراك، تُؤذن بالسقوط، واللحاق برَفيقاتها الغابرات!

كان "الشيخ" يمارسُ ردَّ الفعل الطبيعي لما دسَّهُ قبل قليل في أنفه وما نَشَقَهُ من السَعُوط، فقد استوعب رذاذُ العطسَة وَجْهَ الضحيَّة، وغطَّى "بثُّها" النافذ كلَّ رأسه، وعَمَّ نطاقها الواسع وشَمَلَ شعرَهُ وأُذنيه وبعض رقبته...

❖ ❖ ❖

عندما تكون وَحيداً، تعيش في الغربة بعيداً عن الأهل والوَطن، فإنَّك تشعرُ بالوِحدة في بيتٍ خالٍ، كما تشعر بها في فندق مزدحِم، سائحاً عابراً كُنتَ، أو مُهاجِراً مُقيماً، و "كما" هنا لا تعني ولا أُريد بها التساوي في الكمِّ والكيف، بل الاشتراك في الأصل والالتقاء على الأساس، أي بقاء الشعور، وإن بنسبة متفاوِتة ودرجة مختلفة... فكيف بغربة الفكر ووِحْدة الهم؟ حقاً: "إذا سألوني ما الهوىٰ قلت ما بِيَا".

عندما حاولتُ أن أصفَ "ما بِيَا" لِشَيخي، مَسَحَ علىٰ رأسي كما يُفعَل باليتيم، وقالَ مُردِّداً عبارة تآكلت من كثرة التداول وفرط الاستعمال، والتزمت موقعها الثابت كختم يُطبَعُ في نهاية كلِّ عريضة من قبيل التي قدَّمتُها لِتَوِّي، كتأشيرة وتعليق:

يا ولدي "الباطل يموت بتركه"...

إنها أعْدَامٌ وهَباء، نحن نُضفي عليها اعتباراتها - بما نوليها من شأن وخطَر - ونَهَبُها أثماناً ما كانت تَحْلُمُ أن تقدَّر بِعُشر مِعشارها!... فلنُهمِلْها ونمضي، فستَلْحَقُ بسابقاتها الماضية.

ليست بأوَّل قارورة كُسِرت، ولن تكون الأخيرة...

لنُبيِّن الحقَّ، وننادي به، فسيسقط الباطل ويزول، لنُشعِلَ شمعة، فسينجلي الظلام ويسفر الفضاء.

دعنا نَعرِض بضاعتنا، أو لنُحسِن عرضها خالصةً نقيَّة أصيلة، مُستدَلَّة محكَمة، فهي التي ستجذب الناس، وتقيم للحقِّ والطهارة والسمُوِّ سوقاً رائجة. فيتبدَّدُ الجهل ويزول الفساد ويُدحضَ الباطل من تِلقاءِ نفسه... احرث الأرض وازرعها، تبسق الأشجار، وتينَعُ الثمار، فيندفع البوار، ويسكن الغبار، وتستحيلُ العواصف الهوجاء، نسائم رقيقة تبشِّرُ بالخير، وتبعثُ الرَّوْحَ والريحان.

خالفتُ مُعلِّمي، وعارَضتُ شَيْخي...

مُتمسِّكاً بأصلٍ عرفانيٍّ علَّمَنيه، وقاعِدة أخلاقيَّة تلقيتها منه:

"التخلِيَةُ فالتحلِية"، البراءة فالولاية... لا يجتمع الخير والشر في آنٍ ومكـان، ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِـرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِـى جَوْفِهِ ۝٤﴾ (الأحزاب)، ليس هـذا تزاحماً يمكن معـالجتَه بتنظيم، ولا نـزاعاً يـمكن حلُّه بتوفيق بين طرفيه، إنه تضاد لا يستقيم بوجه من الوجوه.

لا بُدَّ من إزالة عين النجاسة ثم البدء في التطهير وبلوغ الطهارة.

لا بُدَّ من اللعن، ثم الصلاة والدعاء!

لا بُدَّ أن تسقط العروش وتهوي التيجان، ويُزاح الطواغيت التي تُعبَدُ من دون الله، وتتكسَّر الأصنام وتتحطَّم... لِتصبحَ الكعبة البيت الحـرام قبلـة ومَطافاً، ويتحقَّق في الأضـداد "نَجَـسٌ"، ﴿فلا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ ۝٢٨﴾ (التوبة).

لا بُدَّ أن يرحَلَ من لا "نحبُّهم" من "الآفلين"، وإن كانوا مجرَّد مُلصقات فسفورية من تلك التي توضـع على الطرقات الـمُعْتِمة، فتظهر ليلاً حين تقع عليها وتنعكس عنها الأضواء! ولم يكونوا نجوماً وكواكبَ، ولا أقماراً ومصابيحَ، بل ولا حتى شموعاً باهتة يلهو بشُعَلِها الهواء وتتراقص "الأهواء"...

ليُصبحَ الدينُ حنيفاً مُسلماً، إبراهيمياً محمَّدياً خالصاً.

نعم، عارضته، وأبيتُ إلّا أن أنطلق من "النقض"، تاركاً لِصَهْوة "الحلِّ" رجالها وفرسانها... فلنأخذه منهم.

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ (الأنعام)

❖ ❖ ❖

هـٰذه صورة من هموم ومعاناة تعيشها طائفة من المؤمنين، في طَوْرها لتكون تياراً عريضاً، خاضَت تجربة الثمانينيات من القرن الماضي عندما قادَ الشيعةُ الحركة الإسلامية في العالم... ثم ٱنكفأت وأحجَمَت عندما تغيَّرت الأوضاع وٱنقلَبَت، وتسنَّمَ القيادة مَن لم يرتضوه عِلماً وفكراً وديناً، وآلت الأُمور إلىٰ غير ما كانوا يظنُّون ويأملون. وما "الحركة الإصلاحيَّة"، وثورة "المد أو الموج الأخضر" التي تشهدُها الساحة الإيرانية اليوم، إلّا إحدىٰ تداعيات ذلك الٱنقلاب والتغيُّر.

همومٌ تريد بتسجيلها وعَرْضها ثم بمعالجتها، فإن عجزَتْ، فبٱنتزاع وٱستخلاص نفسها من هـٰذا المحيط، تريد أن تكون مشروع بُنية جديدة تعود بمعتقدات الشيعة وقيَم الإسلام إلىٰ الحق... تنأىٰ بنفسها عن الحزب الحاكم، وتتبرأ من الٱنقلاب الذي أودىٰ بـ "الثورة" وأدخلها في السلطة والدولة، كما تتحفَّظ علىٰ "الإصلاحِيِّين"، إذ لا تطمئن لِفِكرهم فتأمنهم علىٰ العقيدة، ولا تضمن إخلاصهم، فلا ينزل بهم ما حلَّ بأولئك من ضلال وفساد!

إنها معاناة وهموم وآلام سجَّلْتُها بقلَم عاشها فِكراً وسلوكاً وعاطفة، يتسابقُ في عرضها وٱحتلال المساحة الأكبر في الصفحات القادمة من الكتاب: الفكر بكلِّ سعيِه للنقاء والأصالة والخلوص، مع التجربة العمَلِيَّة بكلِّ ثرائها وخبراتها الميدانية، ثم العاطفة بعطاءاتها التي تضفي علىٰ كلِّ جمادٍ روحاً، وعلىٰ كلِّ روح تألُّقاً وعظَمة...

أعرضها للقارئ الكريم كمادَّة رساليَّة ودرسٍ عقائدي، أُمارس به الدعوة إلىٰ الحقِّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأُتمُّ به الحجَّة علىٰ أُناس يكابرون، وآخرين يتاجرون!...

❖ ❖ ❖

هٰذا هو الإصدار الثاني من هٰذا الكتاب، يأتي بعد أكثر من عَقْدٍ مضىٰ علىٰ الطبعة الأُولىٰ (١٩٩٨م)، التي كانت قد نفدت سريعاً في حينها... ولم أعمد إلىٰ إعادة النشر، والمبادرة بالطبعة الثانية، علىٰ رغم الطلب والإلحاح الذي كُنت أُقابَل به، وإشارة المحبِّينَ المتابعين إلىٰ خُصوصيَّة تميِّزُ "الغيبة والتغييب" عن بقيَّة أعمالي التي لحقته، بل وحتىٰ التي سَبَقَته (ومنها عملٌ عزيز عليَّ، هو "مقتطفات ولائيَّة")، وتنويههم بالمسحة الخاصَّة التي لمسوها مبثوثة في أرجائه، والتقطوها في مَطاويه وأحنائه، هي مزيج فِكْر وشفافيَّة وروحانيَّة نقلت البيان من وَحْي الدليل والبرهان إلىٰ ما يحاكي الروح والوجدان، وظهرَتْ يداً خبيرة، شخَّصَت الجرح وأخذت تتحسَّس موطن الألم وتستوصف العلاج، ما أنشأ خطاباً طالما افتقدوه.

وللصدق، فإنَّ الإلحاحَ والرغبة التي أزعم أنني وُوجِهتُ بها، لم تكن شديدة ولا كثيرة! وإنما أنا مَن يُجِلُّ الطَلَب، ويُكْبِر السؤال ويلتزم إجابة المؤمن الكريم، ويُعظِّمُ النقدَ والتقييم...

ويأنس، بعدُ، بالإطراء، ويبشُّ للمدح ويفرحُ بالثناء، حتىٰ يرىٰ التنويه إشادة وتفخيماً، ويصنع من القبول إعجاباً، ومن الموافقة وتلاقي الهموم والآراء ارتباطاً وولاءً!

الحقيقة أنني ما كُنت أرغب في العودة والرجوع إلىٰ مواجهة التيارات الانحرافية في الساحة الشيعيَّة ومقابلتها، لا خوفاً من عقيرة كثيراً ما رفعوها بمنكر أصواتهم، قذفاً وبهتاناً وتشويها وتسقيطاً، ولا جُبناً من تهديدات خرقاء ما وَفَّرَت الاستعانة بالظَلَمَة وأعوان الظَلَمة في أنظمة الجوْر، ولا تنزَّهت عن سلوكيات السفَلَة، ولا عفَّت عن أعمال الطغام والأوغاد...

ولا هو تراجُعٌ عن رأي ٱعتقدته وفكرة كُنت أراها فيهم، أو تغيّرٌ في صورة التقطتُها يوماً عنهم، فلا هُم ٱنثنوا وٱرعَوَوا، ولا أنا بدَّلتُ وغيَّرت وٱنقلبتُ... بل لأنَّ الأمر لي، أمر العودة إلىٰ هـٰذه الساحة، هو أشبه بالهَيْض (وهو الألم علىٰ الألم، كَكَسْرِكَ العظم بعدما كادَ يستوي جبره!)، تتجدَّدُ عليَّ فيه مرارة خاصَّة لا تكون في غيره، وأنا الذي ظَننتُ أنَّني فرَغْتُ منها، وخلَّفتها ورائي، بعد أن أدلَيْتُ بدَلوِي ورَمَيتُ بقوسي، وأدَّيْتُ ما عليَّ في هـٰذا الحقل والميدان.

ميدانٌ كنتُ قد آثرت إخلاءه، والٱنسحاب منه، والٱنصراف عنه وتركه إلىٰ ساحة أكثر ٱنسجاماً وتجانُساً مع تطلُّعاتي، وتناغُماً وتلاقياً مع مسلكي الروحيِّ، ومراعاة لتقدُّمي في العمر. لقد ظننتُ أنني فرغت من التخلية والبراءة والإزاحة، ورُحْتُ في التحلِيَة والولاية والبناء... أسرَح في جنان عشقهم، أشمُّ من رياحينها، وأقتطِف من زهرها، وأتناول شَهْدِها.

ولكنِّي عُدْتُ:

وٱبتَزَّ قلبيَ قَسراً قُلتُ مَظْلَمةً
يا حاكمَ الحبِّ هـٰذا القلبُ لِمْ حُبِسَا
غَرَسْتُ باللَّحظ وَرْداً فوقَ وجنَتِهِ
حقٌّ لطَرْفِيَ أنْ يَجني الذي غَرَسَا
فإن أَبىٰ فالأقاحي منهُ لي عِوَضٌ
مَنْ عُوِّضَ الدُّرَّ عن زهرٍ فما بَخِسَا

وقد أعدتُ قراءة الكتاب، فأضفت وأفضيت، وصحَّحتُ وأصلَحت. وها أنا أعرضه من جديد، راجياً الدعاء.

❖ ❖ ❖

يا أخِلّائي بـ «حَزْوَىٰ» و«العقِيق» مـا يُطيقُ الهجـرَ قلبي مـا يُطيق
هل لـمُشتاقٍ إلـيكُم من طريق؟ أم سَـدَدْتُم عنه أبـوابَ الـوِصـال
«الشيخ البهائي»

اْستوقَفَتني عبارة وَرَدَت في دُعـاء "يوم الأربعـاء" (ضمن دعوات أيام الأُسبوع) وهي:

لَكَ الحمـدُ أن بعَثْتَني من مَرْقَدِي، ولو شِئْتَ جعلـتَهُ سَرْمَـداً، حمـداً دائـماً لا ينقَطِعُ أبـداً، ولا يُحصي له الخلائِقُ عَدَداً...

يفيق أحدُنا من نومته في كلِّ صباح ليبدأ يومه بشكل طبيعي كأنَّه اْنتقل إلىٰ حال ووَضع جديد منفصل عن الذي كان عليه، ولا علاقة له به، فهي الإفاقة بعد النوم، ليس إلّا! يَستيقِظُ من رقدَتِه وكأنَّ شيئاً لم يكن ولم يقع! بل يذهب في التساؤل والاْستغراب: هل الإفاقة من النوم قضية تستحق الوقوفَ عندها والتأمُّلَ فيها؟

❖ ❖ ❖

❖ الركون وتوطُّن النفس ونزعة الأستصحاب

مما لا خلافَ فيه بين أطباء النفس وأخِصَّائيي التربية، وعلماء الدين والأخلاق، أنَّ هناك "طِباعاً" مترسِّخة في النفس البشرية، جُبِلَ عليها الإنسان، كنَوع، وكمُنَت في فطرته وطبيعته. فكما أنَّ الإنسان اجتماعيٌّ بِطَبْعِه، ينزع صَوْب الأختلاط والتعامل مع بني جنسه، وينفر من العُزلة والأنفراد... فهو محبٌّ للشهوات والزينة، عاشقٌ للجمال والكمال، محقِّقٌ لِذاته، باحث عن الراحة و... السعادة.

وتصرُّفات الإنسان كلُّها تصبُّ في هذا المجرىٰ أو تصدر عن ذاك الأساس وتبني عليه. وهي تخضع في صحتها أو سُقْمِها، في سلامتها أو خطئها إلىٰ نزاع، بل صراع، متقدِّم تقدُّم الإنسان وخلقته، بين نوازع الطبيعة والشهوة الكامنة فيه، وأحكام العقل وقوَّة الإرادة التي تحكمه وتريد أن تهديه.

ويبدو أن حُبَّ الراحة والدَعَة، هو من أكثر روافد "السعادة" وبواعثها، وأبرز مسبباتها عند الغالبية العظمىٰ من البشر.

والسعادة قد تكون وَهميَّة يغتَرُّ بها ضعاف النفوس وينخدع بها العوام ويأنسون، وقد تكون حقيقية. وهذه هي ضالَّة العرفاء الكُمَّل، والحكماء، الأمثل فالأمثل، ومَظانُّ وُجودها وتحقُّقها رِحابٌ وآفاق أُخرىٰ لسنا بصدد تناولها واستعراضها هنا...

هكذا تجد أن النفس البشريَّة تنزع إلىٰ الغفلة وتجاهل حوافز ومعطيات الحركة (الذهنية)، وتهوىٰ الأستغراق في المحيط والجوِّ الذي يعيشه الإنسان، حتىٰ تألفه وتتأقلم معه وتسكُن إليه، فتخرج من أصعب ما يواجهها ويجهدها: المضي في الصراع والنزاع، إلىٰ أكثر ما يريحها ويسعدها: الركون والأستقرار!

حتىٰ ذهب بعضهم إلىٰ أن الدعة والرُكون والاستقرار الذي يولِّد الراحة النفسية والجسدية هو عين السعادة وغاية المنىٰ! وقد جاء في صُوَر النعيم الموعود في الجنة: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ (الحاقة)، و﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾ (الإنسان)، أي سهلة الأخذ والتناول، بلا جُهْدٍ ولا كُلْفَة ولا عَنَاء.

وكان أكثر ما يواجه دعوات الحقِّ ورسالات الأنبياء عليهم السلام، اصطدامها بحالة الاسترخاء والنعيم الموهوم الذي يعيشه الإنسان، منطَلِقاً من انسجامه مع محيطه، وتأقلُمه مع الأجواء التي يألفها. فالدعوة الجديدة تعني إلقاءه في دوامة الصراع من جديد، وظهور ما سيُفسد عليه استقراره الاجتماعي والمادي والسياسي، وكُلُّها تعود إلىٰ الاستقرار النفسي، وتخرب ما كان يألفه ويأنس به.

من هنا كانت تأتي أُسس بناء ولَبِنَات حائط الصدِّ الأوَّل أمام دعوات الحقِّ التي كان يواجهها الإنسان، فرداً ومجتمعاً، متذرِّعاً بأنه لا يريد ما يمسُّ هذا الاستقرار وينال من رتابة الحياة التي يمضي عليها ويعيشها كلَّ يوم بِنَسَقٍ مألوف غير منكور...

وقد تناوَل القرآن الكريم هذه الحالة مِراراً، وأشارَ إليها، كما عرَضَها صريحة في جملة من الآيات، منها قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ۝٢٨﴾ (الأعراف)، و﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ (الشعراء)، ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ (هود)، و﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ (البقرة)...

ولعلَّ لَفظ "ألفينا" في هٰذه الآية الأخيرة يوضِّحُ ويخدم ما نريد الاستدلال عليه، إذ فيه ما يتخطىٰ معنىٰ "وَجَدْنا" في بقية الآيات، من اقتران الأمر بِحُبِّهم الوضع السابق وأُنسهم به وركونهم إليه.

ويبدو للوهلة الأُولىٰ أنه احتجاجٌ سخيف وردٌّ عجيب، فعادة ما يلجأ المخطئ أو المعاند أو مَن يصرُّ علىٰ رأيه ويرفض اتباع ما يُدعىٰ إليه ويأبىٰ الإذعان له، إلىٰ تسويغ موقفه بذريعة معقولة، يدفع بها حُجَّة خصمه ويُبطل دليله، فيسُوق الأسباب العقلية والظروف الموضوعية والعوامل والعِلل التي دفعته للتمسُّك بموقفه والتشبُّث برأيه دون الرأي والموقف الآخر...

ولٰكن أن تُطرَح الحُجَّة والذريعة بعنوان التقليد ومحضِ اتباع الأسلاف، فهٰذا من غريب الاستدلال وعجيبه! ولا سيَّما إذا انتفىٰ فرضُ كَوْنِ الآياتِ هنا في مقام التعريض وتسفيه آراء الكفار والاستهزاء بهم، كما هي في حوار «إبراهيم» عليه السلام مع قومه ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء).

وهٰذا مما يكشف أن الأمر يشكِّلُ حالةً نفسيَّة طبيعية مترسِّخة، وأنَّ في مكامن نفس الإنسان ما يتوثَّبُ لاقتناص أية شاردة وواردة لاستخدامها مادَّة تموِّن، ووقوداً يؤمِّن مزيداً من الراحة والدَعَة، من خلال الاستقرار والركون ونبذ الصراع والتغيير.

وأرىٰ أنَّ الحالة التي تستنكرها آيات من قبيل: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴿٣٨﴾﴾ (التوبة)، و﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴿١٧٦﴾﴾ (الأعراف)، و﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴿١١٣﴾﴾ (التوبة)، من التي تطرح سقوط الإنسان وتُبيِّن غلَبة الهوىٰ...

أرىٰ هٰذه الآيات تلتقي مع نزعة الاستصحاب والحالة التي نتحدَّث عنها هنا، ومع الآيات التي سرَدناها واستعرضناها في المقام، وتستبطن في أهمِّ أبعادها النداء والفكرة نفسها، في عرض وتركيز أكثر علىٰ العلل والدوافع والأسباب.

وقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلىٰ اطِّراد هٰذه الحالة وشمولها جميع مواقع المواجهة بين الحقِّ والباطل التي نهض بها الأنبياء عليهم السلام بحيث شكَّلت أكبر احتجاج ولافتة معارضة أمامهم، وهٰذا مما يظهر جليّاً في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣﴾ (الزخرف).

بل في الكتاب العزيز إشارات إلىٰ أن هٰذه الحالة كانت قد استحوذت علىٰ الناس وهيمَنَت علىٰ تفكيرهم وامتزَجَت بوُجُودهم واندكت، حتىٰ جعلوها ميداناً للتحدِّي والرهان بينهم وبين الرسل والأنبياء والأولياء عليهم السلام! فأخبر الله تعالىٰ عن قولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ (الأعراف)، فهم يطلبون المواجهة ويتحدَّون معتمدين علىٰ "أسماء سمَّوها هم وآباؤهم" ...!

كما تشير آيات أُخرىٰ إلىٰ دور هٰذه الحالة وما شكَّلتْهُ علىٰ صعيد أدوات التضليل التي استخدمها أئمة الضلال وقادته في مواجهتهم للحق، ووَظَّفوه في المعركة الإعلامية والصراع الثقافي الذي كانوا يخوضونه ضد الأنبياء والأولياء عليهم السلام، من قبيل: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ ۝٤٣﴾ (سبأ)، فالخِطاب هنا خطابٌ رساليٌّ ينظِّر ويفلسف لضرورة البقاء ورفض التغيير...

إنه خطاب يُلقى إلىٰ الناس ويوَجَّه إليهم علىٰ نحو يُؤسِّس للفكرة ويُدخلها في ركائز البقاء علىٰ الكفر والتمسك بالحالة القائمة والوضع الراهن، من منطلق "التراث" و "التركة المقدَّسة"...

وليس مجرَّد رَدٍّ فعل عفويٍّ مُرتَجَلٍ يُلقى كجواب ويُقدَّم كذريعة، (كما كان في الآيات السابقة) يعمد إليه شخص أو يصدر عن فئة تصدَّت لقيادة التيار الذي يواجه «النبيَّ» ويتصدَّىٰ لدعوته، وتقدِّم الأمر كمعارضة للخطاب والدعوة التي تلقَّاها الناس منه...

إنَّ الخطاب هنا فعل وتأسيس، ومبادرة تضع يدها علىٰ مواضع الحساسيَّة التي تثير القوم وتستفزُّهم وتتموضَع بهم في جبهة مقابلة، وتعود بهم إلىٰ وراء أسوار قلعة حصينة "تحفظهم" من "سهام" الدعوة، بل وتؤلِّبهم علىٰ الدعوة ورسالتها التي "تريد أن تصدُّكم عن تراثكم المقدَّس، وقيم الآباء والأجداد"!

عموماً، يظهر أن "الاستصحاب" نزعة وحالة راسخة متجذِّرة في النفس البشرية وفي الحركة الاجتماعية، أخذت موقعها في الصيرورة التاريخية وسُنن التغيير، فلم يشأ الحوار القرآني أن ينسفها من أُسسها ويقتلعها من جذورها دفعة واحدة، بل كأنه عمد إلىٰ "مجاراتها". (ولعلَّ ذلك من قبيل التشريع المرحلي، الذي يمكن تشبيهه بعملية معالجة شرب الخمر والمسكرات في صدر الدعوة)، فجاء القرآن في مقام دحض الدعوىٰ وردِّ الزعم، والاحتجاج عليهم، بقوله تعالىٰ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف)... وفي صيغة التفضيل "أهدىٰ" إشعارٌ بالمجاراة والتنزُّل في المحاججة والحوار، مراعاةً لترسُّخ الحالة وأخذاً بالاعتبار تجذُّرِها وتمكُّنِها من النفس البشرية.

والظاهر أن الأمر يتمتَّعُ بشيء من التسويغ، أي يحمل مُسَوِّغات قابلة للإدراك والتفهُّم! فمنذ نشأته الأُولىٰ وبداية حركته في عوالم الوُجود، والإنسان في سَفَرٍ وغُرْبَة، وتنقُّل وترحال، ونزاع دائم وصراع محتدم لا ينفك ولا يهدأ... ولم تسقط التجربة الإنسانية العامة، والحركة البشرية المجموعية أو الأجتماعية وما طَوَته من مراحل وقطعته من أشواط، لم تسقط السعي الشخصي والحركة الخاصة لكُلِّ إنسان منفرداً، إلّا بهوامش ونطاقات محدَّدة معيَّنة، أبقَتْ علىٰ النوازع والدوافع الخاصة لتحدُو كلَّ فرد علىٰ السعي والحركة، وأن يخوض بنفسه تجربته الشخصية ويعيش حركته الخاصَّة.

لقد أضنت الهجرةُ الإنسانَ وأتعبه الكدح، حتىٰ نصَبَ وكَلَّ...

فتجده في تَوْق وشَوْق إلىٰ أول محطة يُنزل فيها رَحْلَه ويستقر من عناء التجوال، فيُلقِي العنان ويُسْلِمُ القِياد، ليأنس بالأستقرار والسكينة، ويدخل في نَسَقٍ ثابت للحياة: يأتلف في جَمْع، وينتظم في شَمْل، بل يتشبث به لتمضي حياته علىٰ وتيرة تُنسيه جهد السفر ووَعْثاء الطريق، ويتغافل به عن بواعث الحركة المتفجِّرة في داخله دائماً... فهٰذه أيضاً فطرةٌ فيه تنازع شهواته كما هي تلك!

وفي المدرسة الإسلامية لا تجد نهايةً لهٰذا الطريق إلّا بـ "الولاية"، ولا خروجاً من القلق والأضطراب، والنزاع والصراع (دون السعي والحركة بطبيعة الحال، فهٰذه مُستثناة، ستبقىٰ ما بقي الإنسان، يسعىٰ نحو الكمال ويجدُّ السير صوْب الخلاص، لا يقِرُّ له قرار ويطفئُ شَوْقه وتَوْقه إلّا الفناء)...

لا خلاصَ من القلق، ولا راحة ولا فكاك من الحزن، ولا أمان من الخوف... إلّا ببلوغ "الولاية" والأندماج في فَلَكِها.

هناك فقط يزول الخوف ويتبدَّد القلق وينزاح الحزن، وتتحقَّق السعادة لأُولئك الذين ٱتصلوا بحبل "الولاية" وحظَوْا بنصيب منها فكانوا من "الأولياء"، فجاء القرآن الكريم ليبشرهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يونس)، (وهذا ما سنعود إليه في سياق البحث).

وإنما بُعث الأنبياء وقام الربانِيُّون ليُحَدِّدُوا الطريقَ ويرسموها، وٱستُحفِظوا وكُلِّفوا هداية الإنسان وإرشاده إليها، على الرغم من مَشقَّتها ووُعُورتها، وتنبيهه إلى مواطن الأنحراف التي تخرج وتأخذ به بعيداً عنها، والنهوض به من "مواقع الأسترخاء" و"محطات الأستراحة" الوهميَّة، التي ينسجها خياله الباطل وتدفعه إليها أهواؤه وشهواته، ويزينها له الشيطان الرجيم بحيَله وألاعيبه.



❖ الغفلة ملزومة الاستقرار

من لوازم هذا الاستقرار الكاذب والأُنس الموهُوم والبناء الباطل، ومما يستتبع دخول الإنسان في حياة ساكنة رتيبة تخضع لوتيرة ونَسَقٍ ثابت، سعياً وراء الراحة والدَعَة... الغفلة.

والعبارة التي وَرَدت في دعاء يوم الأربعاء وتصدَّرت البحث، تعالج هذه الحالة وهي تشير إليها في العمق.

فقد انشغل الإنسان وَلَهَا، وانصاعَ لِرتابة حياته وتوالي أيامه وانتظام معيشته حتىٰ تمكَّنت منه الغفلة، فنسي أنَّ النوم ضربٌ من الوفاة ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ (الزمر)! فيستغرب مُقتضي الحمد ومَوضع النعمة التي استوجبت الشكر:

"لك الحمدُ أن بعثتَني من مَرقَدي"؟

وكأنَّ الأصل المفترض هو أن ينبعث الإنسان من مَرقده (وَفقاً لطبيعة الأمر ومجاراة لنَسَق العيش والحياة)، فلا فضل ولا مِنَّة تستوجب تذكُّراً، فذِكراً وشكراً!

ولعلَّ هذه العبارة "السجَّادِيَّة" العظيمة، وهذا النصَّ المعصوم جاء يحاكي الذكر الحكيم والقرآن الكريم وهو يشير إلىٰ الحالة نفسها ويُنبِّهُ إلىٰ المرض عينه، وذلك في قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ (القصص)؟...

يبدو أنَّ آخر ما يفكر فيه الإنسان ويُدخله في حساب ٱحتمالاته أو يصرف له شيئاً من عِنايته ويلفت ٱنتباهه، هو أن لا تغيب الشمس آخر يومه الذي يعيش! فهو قد يحتمل (علىٰ سبيل المثال) يوماً سيِّئاً وحَظّاً عاثراً في تجارته، أو في الأمتحان الدراسيِّ الذي سيقدِّمه فيرسب فيه ويخفق في نيل الشهادة، وقد يتوقَّع طقساً عاصفاً لا يناسب رحلته البحرية، أو يحول دون ممارسته رياضته اليومية!...

ولٰكنه لن يفكِّر ولا يحسب لِبقاء ليله سرمداً إلىٰ يوم القيامة! فتتوالىٰ ساعات الليل، وتمضي عقارب الساعة في الأتجاه المقابل حتىٰ تصل السادسة والسابعة... والعاشرة "صباحاً"، ولا تطلع الشمس ولا يظهر ضياؤها ويبقى الظلام جاثماً!

فيشكر ربَّه بعد ذلك علىٰ عدم وقوع هٰذه الطامَّة...

بل ها أنا أُعاني وأُكابد وأنا أخطُّ هٰذه السطور لأكتب حول هٰذه الفكرة وأُحاول عرضها بأُسلوب يحسن إيصالها إلىٰ القارئ، فلا أجد! ولا أنفك أتخيل صورته ترتسم أمامي وهو يتساءل:

ماذا يريد أن يقول هٰذا الكاتب!... ولماذا لا تظهر الشمس، أين المشكلة في الشروق والغروب؟!...

تُرىٰ لماذا فقدت "الآيات الكونية" موْقعها ودَوْرها في حياتنا؟

كيف يباهي القرآن الكريم ويَمُنُّ، أو يتهدَّد ويتوعَّد بأُمور لا نجد لها اليوم أية آلية محسوسة وعطاء ملموس؟ والصحيح أن يكون السؤال: كيف غدوْنا صُمّاً وعُمياً لا تؤثر فينا هٰذه الآيات؟! كيف ٱستطاعت رتابة الحياة ونسقها أن تُصِمَّ أسماعنا عن هٰذا الهاتف المدوِّي، ونجحت "الغفلة" أن تُسدِلَ غشاوتها وتُرخي أستارها، فتُعمي أبصارنا عن هٰذا النور الساطع والضياء الباهر؟!

هل للأمر أعذاره، فنحنُ بشَرٌ نعيش حاجاتنا ونسعىٰ وراء تأمينها، ولم تترك المدَنية لنا مُتَّسعاً للتأمل والتدبُّر؟

هل أخفَقْنا وفشلنا في ٱستحضار هٰذه "الآيات" وإفساح مجال لها في حياتنا؟ هل ٱستطاعت المادية ونجَحَت الأهواء والحاجات الحيوانية فينا، في إشغالنا وإلهائنا؟

قد تكون أسهل الإجابات وأكثرها راحة للضمير وتسكيناً لتأنيبه، هو أن المطالبة بالخروج من هٰذه "الغفلة" هو ضربٌ من التعجيز، أو من النموذجية والمثالية بعيدة المنال. أو أن السرَّ يكمن في "قصور" هٰذه "الآيات" وعجزها عن أداء دورها وفي هبوط فاعليتها، لا في تقصيرنا وغفلتنا! ذلك حين يذهب بنا الشيطان إلىٰ مذاهب أكثر جهلاً، فنصنِّف هٰذه الآيات ونخضعها لمعايير التطوُّر العلمي و"التكنلوجيا" ونضعها في إطار يقضي علىٰ هٰذه الفكرة تماماً، فالزلازل والبراكين والأعاصير والكسوف والخسوف والفيضانات والسيول و... لها ضوابط وقوانين وحسابات كشف العلم جُلَّها وأزاح الستار عنها، ولم يبقَ كثير بحوث ودراسات ليتحكَّم بها ويتمكَّن منها، فيقنِّنها هي الأُخرىٰ، ليصبح التهديد بها مثل تهديد الأطفال بالمارد الذي يستوطن الجدار!

هنا يأتي دور العالم الربَّاني، والحكيم الإلهي، والواعظ الصادق، ليضعَ النقاط علىٰ الحروف، ويرسم معالم الطريق ويكشف حِيَلَ الشيطان وأحابيله، فيُذكِّرنا بما جعلنا نعيش حالة سكان القطب الشمالي وبعض الدول «الإسكندنافية» الذين هم أقرب إلىٰ تحسُّس هٰذه الآيات الكونية، وأكثر ٱستيعاباً لإمكانية بقاء الليل سرمداً، وبالتالي أكثر ٱستعداداً لإدراك نعمة بزوغ الشمس ومجيء النهار.

علينا أن نعيش حالة سُكّان «وهران» في «الجزائر» أو «طَبَس» في «إيران»، عشية اليوم الذي ضربها الزلزال الكبير، وهم يجولون بين الركام يتفقّدون متاعهم ويبحثون عن أعزاء لهم التقمتهم الأرض... فقد كانوا، وغيرهم ممن حلَّت بهم مثل هذه المصائب والنكبات، أكثر ٱستعداداً لإدراك نعمة ثبات الأرض وٱستقرارها، وأكثر قرباً من إدراك فضل "الرواسي" التي تحفظها أن "تميد"، وأكثر فهماً للتهديد والوعيد الإلهي وإحساساً بالنعمة التي جاءت في الآية الشريفة ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الأنبياء)؟!

إن المنهج التربوي الصحيح يدعونا إلىٰ حالة طوارئ رُوحيَّة، وٱستنفار دائم يضع الروح في أوج ٱستعدادها ويقظتها... لتأمَنَ وتنجو من مكائد الشيطان وتزييناته التي تدفع وتسوق الإنسان صوب "الغفلة". فالأمر في غاية الخطورة، وها نحن نرىٰ كيف ٱستزلَّ الأُمَمَ السابقة وساقها إلىٰ الهلاك، بل ها نحن نعيش ونرصد دَوْرَه في إضلال هذه الأُمة والعبَث في وَضْعِها وحالِها!

وعلينا أن نعيَ وندرك، ونذعن، أنَّ "داء الغفلة" هذا ليس مما يقع فيه الكفرة والملحدون، أو يصيب اليهود والنصارىٰ، أو يُبتلى به المخالفون أو الفسقة من المؤمنين غير الملتزمين... فحسب، كلَّا، بل هو مما يصيب المؤمن الملتزم المتديِّن أيضاً!

ولعلَّه المخاطَب الأوَّل في هذه الإشارات التذكيرية التي وَرَدَت في القرآن الكريم والأدعية الشريفة. وللتدليل نذكر: إنه جاء في آداب صلاة الليل، وهي شأن الخواص، أن يسجد المرء عند ٱنتباهه لأداء الصلاة ويقول:

"الحمدُ لله الذي أحياني بعدمَا أماتني وإليه النُشور، الحمدُ لله الذي ردَّ عليَّ روحي لأحمده وأعبده". (1)

والنصُّ هنا يتخطَّى الكناية ويتجاوز التلميح إلىٰ التصريح بالفكرة وإعلانها واضحة، ولعلَّ ذلك موافقة للحالة الروحية، ومراعاةً ومراقبة لمستوىٰ التكامل ودرجة السلوك لَدَىٰ أرباب هـٰذا الذكْر وأهل الإفاقة في السحر، مما يسمح أو يتطلَّب (في المقابل) جرعةً وشحنة أكبر، وعناية أشملَ ولطفاً أعمَّ، إذ الأمر محكوم بتناسب عكسي، فقد جاء في الخبر عن «محمد بن عليٍّ الباقر» عليه السلام أنه قال: "إنَّ لليل شيطاناً يُقال له «الزهاء»، فإذا ٱستيقظ العبد وأراد القيام إلىٰ الصلاة، قال له: ليست ساعتك، ثم يستيقظ مرَّة أُخرىٰ فيقول: لم يأن لك، فما يزال كذلك، يزيله ويحبسه حتىٰ يطلع الفجر...". (2)

ومن النصوص التي تخدم هـٰذا الأستدلال ما جاء في التسبيحات الخاصة بأسحار شهر رمضان، وهي تحوي بحراً من المعاني والإشارات نكتفي بنقله، فقد جاء فيه: "سُبحانَ الله علىٰ إدبارِ النهار، سُبحانَ الله علىٰ إدبار الليل وإقبال النهار، وله الحمد والمجد والعظمة والكبرياء مع كُلِّ نَفَسٍ وكُلِّ طَرْفَةِ عَيْن وكُلِّ لمحة...". (3)

وعندما نجد أن الشرع يندب إلىٰ ذكر: "الحمدُ لله الذي جعَلَ الماءَ طهوراً ولم يجعله نجساً" (4) عند تلقِّي الماء للتطهير، علينا أن نتلَقىٰ ذلك كذِكْرٍ من أذكار شكر الله سبحانه وتعالىٰ وحمِده، كما علينا أن نعي

---

(1) «بحار الأنوار» (ج ٨٧ ص ١٧٣، عن «من لا يحضره الفقيه»).

(2) المصدر السابق (ج ٨٧ ص ١٧٠، عن «المحاسن»).

(3) المصدر السابق (ج ٩٨ ص ١٠٠ ح ٢).

(4) المصدر السابق (ج ٨٠ ص ٢٠٨ ح ١٩).

عُمْق الإشارة ومَداها ونسبر غورها البعيد أيضاً، الذي يتمثَّل في الإيقاظ من الغفلة والتنبيه عن الاستغراق في حالة ومماشاة نَسَقٍ يجعل "طهارة الماء وعدم كونه نجساً" حقاً طبيعياً هو الأصل المفترض والأساس المفروغ منه. وكأنَّ الشارع المقدَّس لم يكن له أن يجعل الطهُور في سائلٍ آخر؟ سائل مضاف، كعصير الرمان ـ مثلاً ـ، دبْقٌ لَزِق، يُورِث اللزوجة في الأعضاء التي يباشر بها الإنسان الوضوء، ناهيك بصعوبة الحصول عليه وتوفيره عند بروز الحاجة.

أو يشرِّع الوضوء والطهارة في مادَّة غير سائلة، كما جعله في التيمم، أو يجعل التكليف في الطهارة كما كان في بعض الأُمم السابقة، إذ كان يجب عليهم قصّ الثوب المتنجِّس، بل قرض الجلد في موضع النجاسة التي تصيب جسم الإنسان وإبانته عن البدن!

وقد يتبادر هنا ـ بسذاجة مستشرفة من تلك الغفلة! ـ أنَّ الله يريد بنا اليُسر ولا يريد العُسر، وأنه لم يجعل علينا في الدين من حرج، وأنَّه لا يكلِّف نفساً إلّا وُسعَها، فلماذا هذا "الخيال" والافتراضات التي لم يُنزل بها سلطانا...

وهذا صحيح، ولكن ألم يكن له عزَّ وجلَّ، وهو ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء)، أن يجعل الأُمور في تشريعاتنا على نَحْوٍ وكيفية أُخرىٰ، كما فعل في بعض الموارد مع بعض الأُمم السالفة؟ أو كما فعل بنا نحن ففرَضَ وكتبَ علينا الصيام مثلاً، فأبقاه ولم يستثنه من تشريعات الأُمم الماضية؟ فأمضاه في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ (البقرة)؟!

من هذا المنطلق كانت "النعمتان" مكفورتين!

فعَن «الإمام محمد بن عليٍّ الباقر»، عن آبائه الطاهرين عليهم السلام قال: قال «رسول الله» صلى الله عليه وآله: "نعمتان مكفورتان الأمن والعافية"[1].

و "مكفورتان"، أي مستورتان عن الناس، لا يعرفون قدرهما، أو لا يشكرهما الناس لغفلتهم عن عِظَم شأنهما.

لا يشعر الإنسان بهاتين النعمتين وبخطَرِهما إلّا عند فقدهما...

عندما تُمسُّ رتابة العيش، ويهتزُّ على المرء الأستقرار والركون، ويكدر عليه الصَفْوُ والسكون، وهو يعيش آثار المرض وتبعاته وَجعاً وألماً ومَرارة، ثم علاجاً مُنهِكاً ودَواءً مُمضّاً، أو يستشعر الخوف تربُّصاً وحذراً، وقلَقاً وأضطراباً وأستنفاراً... عندها تَراهُ يخلعُ رداءَ الغفلة، ويبادر إلى التنبُّه واليقظة، والحركة في الطريق الصحيحة، من تثمين العافية وتعظيم الأمان وأداء بعض حقهما من الشكر.

ماذا لو كانت السماء حمراء قانية ولم تكن بلونها الفعلي؟!

كم كان سيرتفع معدَّل أستهلاك الأقراص المسكِّنة وأدوية الصداع؟ وكم كانت الأمزجة ستفسُد، والطِّباع ستضطرب وتتعكَّر؟

ماذا لو أُرسل علينا الجراد والقمْل، ثم نفاجَأ بأنها محصَّنة ضِدَّ المبيدات الحشريَّة والمعالجات الكيميائية التي نعرفها؟

ماذا لو أمطرَت السماء دماً؟!

ماذا لو عاجَلَنا ما أصابَ «عاد» و«ثمود» و«أصحاب الرسِّ» ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ (الفرقان)... حقاً، كيف أمِنّا؟! ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ (الأعراف).

---

(١) «الخصال» لـ«الشيخ الصدوق» (باب الإثنين ص ٣٤).

وحتىٰ لا يأخذ البحث منحىً أخلاقياً، وهو يسترسل في حشد وسَرْد الشواهد ويعرض المفارقات الناشئة عن "الغفلة" فكأنها مواعظ قد تشغل عن أصل الطرح، وهو يهدف بالأساس، عرض وتثبيت بُنية فكرية لِقَضيَّة متَّهمة - زوراً - بأنَّها عاطفية بحْت لا موقع لها في الفكر، أو أنها - في أحسن الفروض! - من ضروب الترف العلمي، لا موقع لها ولا دَوْرَ في الحياة والطريق السالك بنا إلىٰ الله...

أعود لأربط ما سلف بما سيَلي.



❖ عدم ٱفتقاد «المولىٰ» عليه السلام معلول لتلك النزعة

من أبرز موارد الغفلة التي نعاني منها، بل أخطرها علىٰ الإطلاق، الغفلة عن إمام زماننا وغيبته صلوات الله عليه، وتجاهل حقيقة حضوره، وإغفال دَوْرِه وفعلِه في حياتنا وفي الوجُود كَكُل...

تتوالىٰ الأيام وتتعاقب، تتحرَّك الدنيا في جميع أبعادها المعيشية: يتزاوج الناسُ ويتناسلون، يأكُلُون ويشربون، يتاجرون ويضاربون، يعملون ويزرعون، يحلُّون ويرحلون... تُبنى المدن، وتشقُّ الطرقات، وتنصب الجسور، وترتفع العمارات.

تنشب النزاعات وتقوم الحروب، ويسقط القتلىٰ وتمتلئ المعتقلات بالأسرىٰ، تقوم حكومات وتؤسَّس أنظمة جَوْر، فتضجُّ السجون بالثوَّار والمعارضين، والمستشفيات بالجرحىٰ، والمصحَّاتُ بالمقعدين والمعقَّدين، ثم ينتهي كلُّ شيء فجأة! فيتبادلون الأنخاب علىٰ مائدة المفاوضات، ويتَّفِقُون علىٰ الصلح ويوقعون علىٰ السلم!...

ترمىٰ ملايين الأطنان من القمح في المحيط للحفاظ علىٰ سعره، بينما يقضي ملايين البشر صبراً في المجاعات.

يلوِّثُون البيئة ويشوِّهُون الخِلقة (بشَراً وطبيعةً) بالإشعاعات الذريَّة والأسلحة الكيماوية والجرثومية، ثم يطالبون بالحدِّ من ٱستخدام مزيل رائحة العرق لأنه يزيد في خرق «الأُوزون» ويوسِّع فجوته!

ينصِّب الرؤساء والملوكِ والقادة أنفسهم ولاةً علىٰ البلاد والعباد، يتولَّوْنَ أمور الناس، يقودونهم ويسوقونهم كما تشتهي أهواؤهم، وتصبُّ مصالحهم، وتملي أنانيَّتهم، ويفرض ظلمهم، وتقتضي سَبُعيَّتهم، ويتملَّكُون بلاد الله بسُكَّانها وخيراتها كأنها "مَوَات" أحيوها فملكوها، و "مجهولة المالك" وَضَعُوا اليد عليها!...

ولا شكوىٰ من هٰؤلاء ولا عتَبَ عليهم، وليسوا هم موضوع بحْثنا ومرتَكَز نقْدنا، فهٰذا شأنهم وهٰذا ما يُنتظر منهم، فهم أرباب الشهوة ودُعَاة المادَّة وعُشَّاقُ هٰذه الحياة الدنيا، والعجَبُ إن شذَّ منهم واحد وخرَج عن هٰذا المألوف...

لٰكن تعالَ وانظر إلىٰ من بُسِطَت يدُهُ من "الإسلاميين"، فتسلَّط علىٰ بعض المؤمنين ممن جنَّدوهم، بل "دجَّنوهم"، في منظمة صغيرة هنا أو حزب مغلق هناك، أو تحكَّم في جموع كبيرة، وسيطَر علىٰ جماهير عريضة، أو هيمَنَ علىٰ بلاد شاسعة!...

تراهم يمارسون، سواء من موقع التوجيه الحركي والقيادة الميدانية، أو من موقع التنظير الفكري الذي يحدِّد المفاهيم ويرسمها، إصدار أوامر وتوجيهات، وإلزام بأعمال وحركات تمسُّ مصير الفرد والأُمة، وتتدخَّل في صميم تكليف المؤمن ودوْره الشرعي فيما بينه وبين ربِّه، أو بينه وبين الناس... مارسوها وكأن أتباعهم و"رعيَّتَهم" من المستضعفين المقهورين، قُصَّرٌ وسُفهاء يفتقرون إلىٰ قَيِّم وناظِر، فنصبُوا أنفسهم (تماماً كما فعل الملوك والسلاطين) وُلاةً وحاكمين!

وقبل ذلك، قبل سحقِهِم لأعزِّ ما يملك الإنسان المؤمن (وغير المؤمن)، لما يقوِّم شخصيَّته وكيانه، أي إرادته وحريته، كانوا قد سحَقُوا وأتوْا علىٰ قيمة أعظم، وأصل من أجله كانت هٰذه الحياة وفي سبيله خلَقَ اللهُ الدنيا بما وبمَن فيها...

سحقوا الولاية وهم يتلاعبون بها، وهتكوا الدين وهم يتاجرون به!

حتىٰ خرجت الألفاظ عن مداليلها، وكأنَّها انتقلت عن المعاني التي وضعت بإزائها، وضاعَ علىٰ الناس، علىٰ وَجْهِ الدقَّة والتحقيق، ماذا تعني "الولاية" ومَن هو "الموالي"!

وٱختلط عليهم: مَن هو الإمام ومن هو المأموم، مَن لَهُ الأمر ومَن عليه الٱمتثال والطاعة، مَن له أن يتقدَّم، وعلىٰ مَن يجب التأخُّر واللحوق والٱتباع؟! قفزوا علىٰ الولاية حتىٰ غدَت أُلعوبة يتقاذفها الصبيان "تقاذف الكُرة"!

فقد مارَس هٰؤلاء "الولاية" وأعمَلُوها علىٰ المؤمنين من أتباعهم المنضوين في المنظمات والأحزاب السياسيَّة (علىٰ نطاقات مختلفة، ودوائر متفاوتة من الضيق والسعة)، كما مارسوها علىٰ غير أتباعهم، ممن حكمَتْهُ الساحة وأملَت عليه وأكرَهَتْهُ، سواء في مماشاتهم ومجاراتهم حذَرَ شقِّ الصفِّ وإضعافِ "الجبهة الإيمانية"، أو بتحمُّلِ التبعات وذيول أوْزار ما يفعلون!

ذلك في تجاهل فظيع لصاحب الولاية الأصلي...

وكأنَّ الدنيا خِلْوٌ من شخص يُفترض أنه صاحب الأمر والحقِّ في هٰذا الدور، وأنه هو المالك والولي الحقيقي، والسلطان الوحيد الذي خوَّله الله وجعلَ له أن يفعل ما يفعلون!

وإذا كان أُولئك (الملوك والسلاطين) غيَّبوا «المولىٰ» بإنكاره ونَفْي وُجُوده، فقد غيَّبه هٰؤلاء (الإسلاميُّون) بحُجَّةِ غَيْبَتِه، وتجاهلوه بذريعة ٱنقطاعه، و"وَرِثُوه" وهو علىٰ قيد الحياة!

كم لنا باللوعة والأسىٰ ونحن نرىٰ الأُمور مقلوبة معكوسة، والأوضاع منكوسة!... فبدل أن ينهض الواعون بمسؤوليتهم، ويقوم الرساليُّون بدوْرهم، فينشِئوا منظَّمات ويؤسِّسوا حركات تُعيد الأُمور إلىٰ نصابها، ليستيقظ النيام ويصحوا، ويتنبَّه الغافلون ويهبُّوا من سُبَاتهم، ويعي المستضعفون بأيِّ شيءٍ قد فرَّطُوا وماذا خسروا وعمَّن ٱنشغلوا في مسيرة الغفلة والجفاء والتغييب هٰذه؟

بدل أن يضعوا الساحة في المسار الصحيح الذي ينتهي بها ويأخذ بيدها إلىٰ ما يذكِّر المؤمنين بقضيَّتهم الأصلية، ويُنبِّههم بالمقام والمكان والدَّوْر الحقيقي لإمامهم، ويعملوا في طريق إنهاء غَيْبَتِه وتعجيل فرجه... نرىٰ أنَّ هٰذه الطليعة والنخبة سقطَت، في جُلِّها، في منزلق "التغييب" وٱنساقت مع التيار العام لمسيرة الضلال والإضلال، وٱنسجمت مع الأوضاع الشيطانيَّة والطاغوتيَّة القائمة، بل أمعَنَت في مجاراتها، ولم تأبَ الأندكاك بها.

فهل هو الجهل العلمي، والغفلة العمَلِيَّة؟

هل هم أبرياء مستَغفَلون؟ (١)

---

(١) مما ينقل عن المرجع الأعلىٰ للشيعة في عهده، المرحوم آية الله العظمىٰ «السيد محسن الحكيم» ﷺ أنه سُئل عن الحركة الحزبيَّة، ودخول المؤمنين في الأحزاب الإسلامية (أعمّ من طلبة العلم وعامة الناس)؟ فقال: " إنَّ أمرَ الحزب يدور مدار رئيسه، فإن كان فطِناً نبيهاً، فيُخشى منه، وإن لم يكن فيُخشى عليه "، نقل لي ذلك المرحوم الشهيد «السيد محمد باقر الحكيم». وكنت حينها في وارِد البحث عن خلفيات فتوىٰ أو حكم الشهيد «السيد محمد باقر الصدر» قبيل قتله بحُرمة ٱنتساب طلبة العلوم الدينيَّة ودخولهم في الأحزاب، وهل كان ذلك لفكرة أو مبنىً فقهيٍّ تطَوَّر لديه وتكامل في رؤيته العلميَّة والعمَليَّة، أم هو أداء سياسي يدخل في إطار التقيَّة من النظام البعثي، أو حتىٰ من الحوزة والمرجعيَّة!؟ وهٰكذا كنت أبحث في أسباب الصراع والمواجهة القاسية التي خاضها «حزب الدعوة الإسلامية» ضد «السيد محمد باقر الحكيم»، وما عمد إليه من أساليب غير شرعية وغير أخلاقية، من الطعن فيه وتسقيطه وهتك حرمته، ومناجزة مشروعه "المجلس الأعلىٰ للثورة الإسلامية في العراق"؟

وقد عرضتُ هٰذا النقل، في سياق الدراسة والتحقيق، علىٰ غيره من المقرَّبين من «السيد الحكيم» (المرجع) وبعض وكلائه، فأقرَّه، ومنهم من صحَّح في ألفاظه وعدَّل شيئاً، لٰكن دون أن يخرج عن المضمون والمؤدَّىٰ نفسه، وقال: إن العبارة ٱشتهرت في الأوساط النجفية وذاعَ صيتها آنذاك.

أم هو خُبْثُ السرائر والتغافل الذي وَجَدَ في هذا الأنسياق ولاقىٰ في هذه المجاراة أفضلَ وَسائل تكريس وتعميد قيادتهم، وتأمين مصالحهم؟ فأمعنوا في ترسيخه، وأوغلوا في تثبيته وٱعتماده منهجاً، وتبنِّيه أصلاً تنطلق منه حركتهم؟! فدخلوا وأصبحوا جزءاً من مؤامرة كبرىٰ، أرادت بالدين كيداً، ونصبت لِوَليِّه حرباً؟

أُسست منظمات وأُنشئت أحزاب وقامت جماعات سياسيِّة، حتىٰ نهضَت فئات منهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقامَت طوائف بالجهاد... ولكن ماذا كانت النتيجة؟

حركاتٌ وتضحيات، ومسيرة طالَت، خلَّفت جماهير تنطلق من عقول جمعيَّة مُقنَّنة، تتحرّك بوتيرة تحسدها عليها الآلات الصناعية! تسوقها في ساحة غريبة عن قِيَمِها التي عرفتها، أجنبية عن أساليبها التي أَلِفتها، متخبِّطة في مواقف وقرارات لا تميِّز فرعاً لها من أصل، ولا تعرف ثابتاً من متغيِّر، ولا رأساً من قَعْر.

وقد مَضت في حركتها حتىٰ بلغت مواقع يندىٰ لها الجبين، وتطأطئ الرؤوس، رؤوس مَن بقِيَت فيهم بقيَّة من حياء. مواقع تشكِّل الحضيض، والغاية في الأنغماس بالدنيا، والخوض في الألاعيب السياسية، مما يأنف منه حتىٰ بعض اليسار العلماني والملحد! ويأباه كلُّ حرٍّ لم تنطوِ نفسه علىٰ ضيم، فنهض وقامَ ليُحِقَّ حقاً رآه، ويبطِلَ باطلاً رفضه... مواقع تُعَدُّ الغاية والنهاية في ٱمتهان المؤمنين والأستخفاف بعقولهم وٱحتقار فكرهم، وفي ٱستغلال جهودهم، وصرف طاقاتهم في " جبهات " وميادين، أقل ما يمكن أن تنعت بها هو أنها تصبُّ ـ في محصِّلتها ـ في جيوب القادة ومصالحهم، بعيداً عمَّا نذر أُولئك المستضعفون أنفسهم له، وأرادوا أن تكون تضحيتهم في سبيله!

ٱستحوذت الغفلة وهيمَنت علىٰ الحركة الإسلامية ورُموزها، فغدَت الساحة بين غافل ومتغافل...

بين جماهير وقاعدة جاهلة تخوض مع الخائضين، كالهمج الرعاع ينعقون وراءَ كلِّ ناعق، وبين "عالم" و"مثقَّف" و"مفكِّر" وَالىٰ الشيطان الرجيم ونذرَ نفسه لخدمته، فتحالف معه وسخَّره، لِيَضع كلَّ طاقاته وإمكانياته في خدمته، حتىٰ يصنع منه رمزاً يُشار إليه، وعلَماً يُلتفُّ به وحوله، وإماماً يُقتدىٰ بضلاله... وفي الحقيقة: طاغوتاً وصنماً ووَثناً يُعبَدُ من دون الله!



❖ أدعياء الولاية

ينقل المطران «جورج خضر»[1] في كتابه الرائع "الرجاء في زمن الحرب"، كلمة لـ «داغ همرشولد» يقول فيها:

"لا يمكن أن تُلاعِب الحيوان الذي فيك ولا تصبح بالكُلِيَّة حيواناً، وأن تلاعِب النفاق ولا يُصادر حقَّك بالحقيقة، وأن تلاعِب القسوة ولا تخسر إحساس الفكر"، ثم يعقِّب قائلاً: "إنسانٌ في وَسَط الفكر السياسي قال هٰذا لأنه كان ذا قلب. أظنُّ أنَّ الذي لم يلامسه الشعر، ولا الجمال، ولا الله، في العمق يبقىٰ حيواناً سياسياً. أن تكون ذائقاً أُمور الله ورُوح الإنسان شرطٌ لقيادتك"...

والرجل يتكلَّم من خلفية عِلمية متينة ٱمتزجت بتجربة سياسية فريدة، صقلتها معاناة قاساها في معترك «لبنان»، الذي قد يكون الأشد والأبرز في عالم السياسة المعاصرة.

تُرىٰ، عمَّ ستتمخَّض حركات وأحزاب "إسلامية" يقودها غافلون؟! لم يتذوَّقوا أمرَ الله ولا روح الإنسان... فهم لم يعرفوا الله ليعرفوا أمره ويشخِّصوا وَليَّه وخليفته!

أَوَتكون قيادة الناس وتولِّي أمر خلق الله سبحانه وتعالىٰ، مهما قلَّ عددهم، وتحدَّد حجم جماعتهم، بالأمر الهيِّن المبذول لأيٍّ كان، حتىٰ ينبري له هٰؤلاء ويسمحوا لأنفسهم به؟

---

(١) أُستاذ مادة الإسلاميات في جامعة «البلمند ـ لبنان»، ومطران «جبيل وكسروان» للروم الأرثوذكس، الأبرز فكرياً وعمقاً فلسفياً ولاهوتياً بين المعاصرين في الكنيسة الأرثوذكسية في المشرق، كاتب بليغ وأديب بارع، من دُعاة الحوار الإسلامي ـ المسيحي، مما ينفرد به: رأيه في أن المسيحية لا تحتِّم إنكار نبوَّة «محمد» ﷺ بالكليَّة، ولا تُعارِض الإيمان به.

كيف يتصدَّىٰ رجلٌ لم يحمل حِكمة، ولم يحضن عِلماً، لم ترسخ له قدَمٌ في الفضل، ولا باعٌ في الجهاد الأكبر، بل لم يخطُ خطوته الأُولىٰ في هٰذه الرحاب بعدُ... يتصدَّىٰ لـ "قيادة الساحة" وهداية الناس؟

كيف يُصبحُ مَن لم يَخُضْ عُبابَ العلم، لا ٱستجلىٰ غوامضه ولا تقصَّى دقائقه، لا أمعن في التنقيب، ولا أوغل في البحث، بل مضىٰ متخبِّطاً في دربِ الجهل المركب، حيث راح يبني عُشَّه وبيته العنكبوتي هناك... يُصبحُ مُستَحفَظاً ومؤتمناً علىٰ الدماء والأموال والأعراض؟ بل علىٰ الفكر والعقيدة، وهي أعظم خطباً وأكثر خطراً؟!

كيف يقبل لنفسه أن ينبري لمقام الولاية، الذي يعبِّر «المولىٰ» عليه السلام عن إحدىٰ شؤونه وبعض أشكاله وصُوَرِه (القضاء) مخاطِباً ذلك التعيس، وكلَّ من يلوح في أُفق هٰذا الخطِّ علىٰ مدىٰ الأيام والأجيال المتعاقبة: "يا «شُريح»، لقد جلَستَ مجلساً لا يجلسه إلّا نبيٌّ أو وصيُّ نبيٍّ أو شقيٌّ"![1] وما هو بنبيٍّ ولا وصيِّ نبيٍّ...

ألا تَعْساً لمن قبل بالشقاء عن طِيب خاطر! أيُّ خيبة هٰذه التي تجعل المرء يتصارع ويتكالَب علىٰ هٰذا الشقاء؟!

كيف يَقْبَلُ "مؤمن" لنفسه هٰذا؟

هل هي البهيميَّة والسبُعيَّة وقد أُرخيَ لها العنان وأُفسح المضمار، فتقحَّمت متفجِّرة من مكامنها، وراحت تعبث بهٰذه النفس المسكينة المستضعفة حتىٰ صيَّرتها كما تشاء، وأسدَلَت عليها الغطاء، وأرخت الحجاب، وأودعتها الغفلة، فلا بَصَرَ من حديد (إلّا بعد أن تلتفَّ الساقُ بالساق!)...

---

(١) (وسائل الشيعة) لـ «الحرِّ العاملي» (ج ٧ ص ١٧)

أم هي إخفاقات النفس ومَزالق العُقد، التي كوَّنتها مُركَّباتُ نقصٍ ترعرَعَت وتفاعَلت ـ عبر سنين متمادية ـ في ظلِّ الحرمان والظلم، إلىٰ جانب إحباطات متتالية وهزائم متلاحقة، وما إليه مما يكتنف حياة أغلب الأفراد، في مختلف الشرائح الأجتماعية (ولم ينجُ من تبعاتها إلّا قليل)، فلا تجد في إضبارة أحدهم رَقماً يعلن عن نجاح ويسجِّل تفوُّقاً، ولا حالة تُعدُّ مَكرمَة أو تصنَّف إبداعاً! ما هم إلّا بين خَشِلٍ وفَشِل، ومتخلِّف ساقط، ولعلَّك لا تعدم من بينهم الخِساسُ الأراذل...

هٰذا هو منبت أغلب الزعامات الحزبية، ومن هنا جاءت القيادات التنظيميَّة، هٰذه هي الخلفيَّة الأجتماعية والأرضيَّة النفسيَّة، أو المهد الروحي، لِجُلِّ رجالات الحركة الإسلاميَّة... فهل عسىٰ ذلك إلّا أن يُرسِّخَ فيهم الحقد والحسد والغرور والأنانيَّة؟ ثم ينفجِر هيمنة وأستبداداً، وفساداً وإفساداً؟

تُرىٰ، هل لـ «إبليس» الرجيم من شرَك أكبرُ من هٰذا؟

أم له من مرتعٌ أخصَبُ من هٰذا؟

هل للشياطين من مُروج معشَوْشبة كهٰذه التي يكلؤها هٰؤلاء التعساء برعايتهم، وينبتوا فيها ما يُسمِن قرابين الفتنة، لتأتي سكين، بل مقصلة "الولاية" الكاذبة المغصوبة لتحصد هٰذا الجني الآثم وتولد هٰذه النطفة الحرام، وتصنع الصنمية و"عجولاً" تخور؟!

أوَيكون التغلُّب علىٰ "حبِّ الرئاسة"، والقضاء علىٰ "شهوة الإمرة"، وصَرْع "عشق الظهور والشهرة"، مما يمكن فرضه في أيِّ طفل (مهما بلغ من العمر) يحبو علىٰ أعتاب الدين، وأيِّ مُتطفِّل يتسكَّعُ علىٰ أبواب العلم، وأيِّ غِرٍّ تائه في دروب السير والسلوك، لا يميِّز الأفعىٰ عن الحبل، ولا الشهد عن السُمِّ الزعاف؟!

وهي (الرئاسة) "آخر ما يخرج من قلوب الصدِّيقين"!

والصدِّيقون هم قمَّة السالكين وأعلىٰ مراتب العرفاء الذين طَوَوا المراحل واْجتازوا المنازل، وقَطَعوا "الأقاليم السبعة" التي يُشير إليها «المولوي» بقوله:

هفت شهر عشق را عطار گشت

ما هنوز أندر خم يك كوجه ايم(١)

---

(١) البيت لـ «جلال الدين الرومي»، وترجمته: لقد قطَعَ «العطار» (النيسابوري) وبلَغَ واْجتاز منازل العشق السبعة، وفرغ من التجوال والسياحة في مُدُنِها، ونحن ما زلنا نتعثَّر في منعطف السِكَّة الأُولىٰ من الدرب!

والعرفاء يعبِّرون عن مَدارج ومراحل السير والسلوك، بالسماوات السبع تارة، وبالأقاليم أو المنازل أو مدن العشق السبعة تارة أُخرىٰ.

وقد قصَّ الشيخ «فريد الدين العطار» في كتابه «منطق الطير»، حكاية السير والسلوك والسفر في عالم النفس، وشبَّهها بالبحث والتحرِّي الذي يبدأ من مرحلة التزكية ونفي الميول لِيَمرَّ بمنازل العِشق والعِلم والحيرة، ويَصِلَ في نهاية المطاف إلىٰ المقصود النهائي، يعني الفناء، والوحدة مع الله.

والقصَّة تحكي عن سِربٍ كبير من الطيور، عزم السفر بِلَهفة، وقصَدَ المسير بشَوْق ورَغْبَة، تحت هَدْي الهدهد وقيادته، أملاً في العثور علىٰ "السيمرغ" وسَعْياً إليه، وهو ما يرمز إلىٰ "المعشوق"، ولكن أكثر الطيور اْنكفأ وتراجع ولم يواصل، وعادَ عن السفر متذرِّعاً بأعذار مختلفة، ولم يبقَ في آخر الأمر إلّا ثلاثون طيراً، قطعوا الأودية السبعة، ووَصَلَوا في النهاية إلىٰ قصر "السيمرغ" وحضرته.

وهناك طلبوا رؤيته، لكنَّ الجواب أتاهم بأنَّ الرؤية ممتنعة! ومن فرط العشق وفعل الجذبة التي بلغوها بعد طيِّ المراحل وبلوغ المنازل، ماتوا هناك، أي تخلَّصوا من موجوديتهم المادية، وعندما فتحوا أعينهم في عالم أنفسهم شاهدوا المعشوق، فعلِموا هناك أن "السيمرغ" الذي طالما سعوا في طلبه، ليس في الحقيقة إلّا أصل واقِعِيَّة وُجُودهم، وهم الثلاثون طيراً، فكلمة "سي مرغ" بالفارسيَّة تعني "الثلاثون طيراً"، وهي نفسها المعشوق "السيمرغ".

←

وإلى "الصدِّيقين" يُنسب برهان الفلاسفة الإلهيين في معرفة الله سبحانه وتعالى واستكشاف العِلَّة من ذات المعلول، وهو برهان الكُمَّل من أنبياء الله وأوليائه عليهم السلام الذين يقول سيِّدُهم و«إمامهم» عليه السلام في (دعاء الصباح): "يا مَن دلَّ على ذاته بذاته"، ويقول ابنه «الحسين» عليه السلام في (دعاء عرفة): "كيف يُستدلُّ عليكَ بما هو في وجوده مفتَقِرٌ إليك، أيكونُ لغيرِكَ من الظهور ما ليس لكَ حتى يكون هو المظهِرَ لك؟ متى غِبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك؟! ومتى بعُدْتَ حتى تكون الآثارُ هي التي توصل إليك؟ عَمِيَت عينٌ لا تراك..."، ويُخاطِبُ حفيده «زينُ العابدين» عليه السلام ربَّه في (دعاء أبي حمزة) فيقول: "بِكَ عرفتُكَ وأنتَ دللتَني عليكَ"، ويقول «أميرالمؤمنين» عليه السلام في "مناجاته الشعبانية" وهو يعرض واحدة من صُوَر الوصول والفناء والاستغراق: "وأنِرْ أبصارَ قلوبنا بضياءِ نظرها إليك حتى تخرق أبصارُ قلوبنا حُجُبَ النور فتصِلَ إلى معدِن العظَمة وتصير أرواحُنا معلَّقة بعزِّ قُدسِكَ، إلهي اجعلني ممن ناديته فأجابكَ، ولاحظته فصَعِقَ لجلالك، فناجيته سراً وعمل لك جهراً"...

←

فالمعشوق من النفس أقرب من حبل الوريد، وفي الذكر الحكيم: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ولعلَّه من هنا قال «أميرالمؤمنين» عليه السلام: "مَن عرَفَ نفسَه عرَفَ ربَّه"، ولم يكُن سفَرُ المعرفة هذا من السالكين إلّا السير أو السَّبْح الأنفسي لِكَشف الحقيقة المكنونة فيهم، والمنازل تصقل وتجلو الصدأ عن مرآة القلب التي يتحقَّق فيها اللقاء وتتمُّ بها المشاهدة.

والقصَّة تمثِّل صورة دَوْرِ العارف المرشد الذي يهدي مُريدِيه نحْوَ معرفة الله، التي لا تحصل إلّا بمعرفة النفس، و"الأوْدية السبعة" تعبير عن منازل السير والسلوك التي توصل السالك المشتاق، بهداية العارف المرشد، إلى المحل المقصود، لِيَحصل على البقاء عن طريق الفناء. ■

أين التائهون في صحراء الشهوة من هذه المقامات؟

بل أين من نَسَبُوا أنفسهم إلى الدين، وارتبطوا بنَحْوٍ في عوالمه، من هذه المراتب والدرجات، ومن أربابها وأسيادها عليهم السلام؟ حتى ينتحِلوا صفتهم، ويتربَّعوا في مواقعهم، ويمارسوا أدوارَهم؟...

ودَعْكَ عن هذه المقامات، وسَلْ عن رتبة "النيابة":

أين الغرباء الذين ما عقدوا عزماً ليعرفوا مَحْقاً ولا مَحْواً ولا صَحْواً ولا صعقاً، ممن بلَغ حقيقة الفقاهة والعرفان، وعاشَ الورع وانكَبَّ على الزهد والتقوى والعدالة حتى انصبَّت فيه، فغدت مَلَكَة راسخة، وصارَ مِصداقاً لـ "صانَ دينه وخالَف هواه وأطاعَ مولاه"، ليَحِقَّ له الأمر، ويجوز لنا الائتمار؟!

لا شكَّ ولا رَيْبَ أنَّ القوم في حبائل الرئاسة والإمرة متعثِّرون، وعلى مزالقها صرعى تائهون، وفي زينتها يخرجون ويباهون... ومن سُكرها يغترفون، بل يكرعون!

أين الذي ينتشي طرَباً لمديح مُتمَلِّق، ويبتهج جذلاً لتقريظ متزلِّف، ويهتزُّ عطفاه فرحاً لثناء مُعْوِز لم يجد غير هذا سبيلاً لإرضائه! يهشُّ للإشادة، ويبشُّ للصيت والسمعة، ويبتسم وتبرق ثناياه وتنفتح أساريره للإطراء والتنويه...

ثم يفورُ حزناً ويغلي غضباً لنصيحة مُشفِق، ويمتلئُ غيظاً وكمَداً لِقَدْح ناقد، ويكفهرُّ لوْعة وكآبةً وتفجُّعاً لهجْوٍ سطَرَه مظلوم، ويلتاعُ غمّاً لمثلَبة عدَّها وذكَرها أحدُ ضحاياه!...

أين هذا من منزلة الولاية؟!

أين هذه النماذج الساقطة من مقام الإمرة؟

أين هي من التربُّع على عرش القلوب وأزِمَّة الأرواح؟

كيف يجوز أو يصحُّ أن يتصدَّىٰ أُناس لا تتخطىٰ درجتهم الروحية هٰذا الحدّ، ولا تفوق نفسياتهم المريضة ذاك المستوىٰ، أُناسٌ تحكمهم العُقد النفسية والأمراض الروحية، ولم يحركوا ساكناً في طريق معالجتها وتهذيبها بالأخلاق وإصلاحها بالتربية... كيف يجوز ويصحُّ لهم أن يقودوا حركة إسلامية تُخضع عشرات أو مئات، وربَّما أُلوف، ولعلَّه ملايين المؤمنين لطاعتها وتوجيهاتها!؟

ماذا عسىٰ هٰؤلاء أن يقدِّموا لجماعاتهم، وماذا عسىٰ هٰذه الجماعات أن تقدِّم للأُمة، وماذا عسىٰ هٰذه الأُمة المنكوبة أن تقدِّم لمولاها وإمامها الغائب؟!... حقاً إننا "نرجو مطَراً بغير سحاب"، وحقَّ أن نكون "أيْأسَ من غريق"!

وقد يجد بعض السذَّج العزاء في العنوان الذي يضمُّ هٰؤلاء، واللافتة التي يقفون خلفها: "الإسلام"، و"الدفاع عنه وعن المستضعفين أو المظلومين"... فيفرض القداسة لما يمثله هٰذا الرمز ويعنيه هٰذا الشعار، ثم يرىٰ في مظاهر برَّاقة حُجَّة تبيح الحياد إن لم توجِبُ النُصرة، فينخدعَ بالدموع "أثناء قراءة دعاء كميل"، ويُعجَب بحُسْن الركوع وطول السجود، وبوادر الثفنة علىٰ الجبهة!

و«الباقر» عليه السلام يأمرنا أن: "لا تغتروا بكثرة صلاتهم ولا بصيامهم، ولٰكن اختبروهم عِند صِدْق الحديث وأداء الأمانة".[1]

---

(١) (وسائل الشيعة) (ج ١٩ ص ٦٧). ومما يورث العجب، تأصُّل هٰذه الضابطة (الكذب) وتجذُّرها في المضلِّين... هٰذا كبيرهم في هٰذا العصر، تراه يردُّ علىٰ من ينتقده لإثارة فتنة إنكار ظلامة «الزَّهراء» عليها السلام، يردُّ بأنه كان يجيب عن سؤال، وأنَّه لم يبتدئ ولم يُبادر بالطرح. وهٰذا كذب بَحْت وإفكٌ صُراح! فقد بادر وابتدأ، وتعمَّد طرح الموضوع وإثارته ضمن محاضرة امتدَّت لأكثر من ساعة، ←

سبحان الله... فهم الأضعف والأسوأ في أداءِ دَوْرَ الصدق وٱلتزام الأمانة بالذات، دون غيرهما من الأدوار والمظاهر والألتزامات الشرعيَّة والأخلاقيَّة، ويبدو أنها أثقل ما عليهم، لِذَا فأنت لا تجد أكذبَ من هؤلاء، ولن تجد أكثر خيانة وغدراً منهم! فـ "العنوان الثانوي" أيسر سُبُل القفز على القِيَم والمثُل والأخلاق، وهو مبذولٌ لهم لا تحكمه إلّا "المصلحة" التي يقرِّرون "هُم" حدودها وإطارها! (١)

(١) يقول في تفسيره (من وَحْي القرآن) (ج٤ ص٢٠٢ ـ ٢٠٥): "... التي قد تؤكِّد الفكرة القائلة بأن الغاية الكُبرى تبرِّرُ الوَسيلة المحرَّمة، بمعنى أنَّها تجمِّدُها وتنظِّفها (!) من خلال ٱرتباطها بسلامة الخطِّ العام"! ويضيف: "... وهذا مما يجعلنا نؤكِّد على أنَّ الأخلاق الإسلامية لا تمثِّل قيمة إيجابيَّة، بل تمثِّلُ قيمة سلبيَّة قابلة للتغيُّر في حركتها في الواقع الإنساني، تبَعاً للعناوين الثانويَّة الطارئة التي تختلف الأحكام الشرعيَّة بٱختلافها"! ويمضي من هذا الهراء إلى خَبْطٍ وخَلْطٍ يكشف حظّه من العلم، وأكذوبة ٱجتهاده وفقاهته، وهو يُنزل "قاعدة التزاحم" منزلة ما ٱبتدعه من أن "الغاية تبرِّر وتنظِّف الوسيلة"، خالِطاً بين التزاحم وبين موارد العموم والخصوص، وموارد ٱجتماع الأمر والنهي! راجع (خلفيات المأساة) (ج٥ ص١٤٢) وٱنظر إلى الفضيحة العلمية، وماذا فعل به «السيد جعفر مرتضى» هناك!

←
أعقبتها جولة من أسئلة الحضور وأجوبته، فأُعيد طرح الموضوع ثانية من قِبَل إحدى الحاضرات. بل إنَّ سؤال "السائلة" إنما كان ٱعتراضاً أو ٱستفهاماً، لم أتبيَّن فأجزم، على طرحه الذي بادَر فيه لإنكار ظلامة «الزَّهراء». لكنه، ٱعتماداً على ٱنتشار مقطع الأسئلة والأجوبة فقط من الشريط المسجَّل، دون المحاضرة كاملة، مضى خلال هذه السنين المتمادية في هذا الردِّ الكاذب، مراهناً على تفشي عدم التثبُّت، وضعف الهِمَم في البحث والتحقيق.

وفي حوزتي نسخة من الشريط الكامل للمحاضرة، الذي يتضمَّن الأبتداء بطرحه الموضوع وإثارته الفتنة، ما يثبت أنَّه كذب في دفاعه وتسويغه! ■

نعم، إنهم إسلاميُّون مُلتزمون، يُصلُّون ويصُومُون ويحُجُّون، ولكنهم على استعداد لِسَحْق كلِّ هذه المقدَّسات إذا ما مُسَّت منظَّمَتُهم بِسُوء، أو نال حزبهم كَلْمٌ أو ثلم! وعلى الأهبة للقضاء على أي مُعارِض همسَ ببنت شفة، ولهتك وبخس مؤمن ترقى حرمته على الكعبة المشرفة [١]، في سبيل "مصلحة" رآها قائدهم!

بل قبل ذلك، قبل أن يتهدَّد كيانهم السياسي خَطْبٌ، وقبل أن يردُّوا على منافسيهم أو معارضيهم فيهتكوهم ويقضوا عليهم... بمجرَّد تأسيس هذه الأحزاب، ومَحضِ خَوْضِها بعيداً عن «المولى» عليه السلام، وحَوْمها في فلَكِ غيره، ودورانها حول قطب آخر، كانوا قد أجهزوا على روح الصلاة والقيام، وداسوا جوهر الصيام، وهتكوا كُنه الحجِّ والإحرام... وهذا «الفضيل» يروي عن «الإمام الباقر» عليه السلام قائلاً:

"دخلت مع «أبي جعفر» عليه السلام المسجد الحرام وهو متَّكئٌ عليَّ، فنظر إلى الناس ونحن على باب «بني شيبة» فقال: يا «فضيل» هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية، لا يعرفون حقاً ولا يدينون ديناً، يا «فضيل» انظر إليهم مُكِبِّين على وجوههم، لعَنَهُم اللهُ من خلق مَسخُورٍ بهم، ثم تلا هذه الآية ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾...» [٢].

---

(١) يبدو أنَّ ما جاء في حديث: "المؤمن أعظم حُرمةً من الكعبة"، قد لا يُرادُ به ظاهره، إذ الكعبة من مصاديق بيضة الإسلام التي دونها وُجُوب الدفاع وبذل النفس، بل الأنفس، إذاً فالمقصود بالمؤمن هنا، هو المؤمن الكامل، وهو حقاً أعظم حُرمَةً من الكعبة، إذ هو عِدلُ القرآن، وهو الإمام من «آل محمد».
وفي ‹الجواهر› (ج٢١ ص٣٤٥) أن الإمام أعظم حرمة من الكعبة والقرآن.

(٢) ‹الكافي الشريف› لـ «الكُليني» قدس سره (ج ٨ ص ٢٨٨ ح ٤٣٤).

تُرىٰ كيف ولماذا صار هٰؤلاء "مسخُور بهم"؟

كيف جازَ تشبيه حُجَّاج مسلمين، يطوفون بالبيت الحرام، بكفَّار الجاهلية؟ كيف ولماذا ٱستحقوا اللعنة علىٰ لسان وصي «النبيِّ» الأعظم و«إمام» زمانهم وحجَّته عليهم؟ ألا يعني هٰذا أن الملاك ليس في الصلاة والصيام والحج وغيرها من العبادات، بل في الولاية ومدىٰ الٱندكاك فيها، والحركة في آفاقها، وٱتِّخاذها الأصل والأساس للبُنية الدينيَّة، والباب والمفتاح لجميع العبادات والأعمال؟

ماذا عسىٰ هٰذه الحركات والقيادات الإسلامية أن تعطي وَعْياً ونمواً وتكاملاً، وفاقِدُ الشيء لا يعطيه...

لا غَرْوَ إن ساقت الجموعَ وقادتها صوب "التغييب"، وأخذتها بعيداً عن الحقيقة ونورها، ولا عجبَ أن ينعَتَ قاموسُهم البحثَ في الأدوات والوسائل والمحطَّات التي تربطنا بـ «المولىٰ» عليه السلام، وفي طُرُق معرفته وعشقه، وإخراجه من مُغيَّبِه إلىٰ عرش الله، فـ "قلب المؤمن عرش الرحمن"[1]، والقلب مأوىٰ الحبيب... بأنَّه ضربٌ من الترف الفكري، وإهدار الطاقات، وصرفها في ما لا طائل فيه!



---

(١) «البحار» (ج ٥٨ ص ٣٩ ح ٦١). كما جاء في الحديث القدسي: "لم تسعني سمائي ولا أرضي، ووَسعني قلب عبدي المؤمن".

❖ هل هو أشدُّ العهود على الغيبة؟

وتمضي عجلة الحياة وتدور رَحَاها في غفلة عن قطبها، وتجاهل لأصل وُجُودها ومحور حركتها... غابَ لِعَدَم حضور الحاضر، ولسقوط الحجَّة بٱفتقاد الناصر، ونحن نُمعِنُ في ٱستمرار العِلل، ونوغلُ في ترسيخها، وكأننا نحرِص على أن تبقى لأطول فترة ممكنة!

وبحكم الظاهر والتحليل الطبيعي لا الغيبي، فإنَّ بين غيْبة «المولى» وظهوره الشريف تناسب عكسي، فكلَّما ٱنحسرت الغيبة، وتناقَصَ طَوْرها وٱنحسَرَ عهدها، كان عصر الظهور ودوره أقرب، وكلَّما كثرت مظاهر التغييب وبرزت في الحياة، كلَّما بَعُد الظهور وتأخَّر.

ما هي آلية "المهدوية" في الحركة الإسلامية اليوم، وما هي درجة حضورها، وما هو نطاق فاعليتها؟ وقد كانت من القوَّة والحضور في العهود الماضية بحيث ٱنتحلتها عِدَّة أحزاب ورفعتها شعاراً! فقد كانت الأُمة تعيش الأنتظار، حتى لم تكن لِتستوعب وتتفهَّم خطاب ورسالة حركة إسلاميَّة تنشد العدالة والخلاص خارج هذا الإطار، لذا كان "سياسيو" تلك العهود ينادون بالمهدوية ويرفعونها شعاراً.

أما في عصرنا الحاضر، فقد بلغ التغييب حداً أنسى الأُمة إمامها ومهديها المنتظر، ولم يعد السياسيون بحاجة إلى مثل هذا الغطاء، فٱستغنوا حتى عن الشعار!

وهنا رأيٌ معاكس ونظرة تفاؤلية تقول إن الإمام «المهدي» عليه السلام من الحضور في الساحة، والهيمنة على النفوس، والمكانة في القلوب في عهدنا هذا، بما لا يسمح لهؤلاء السياسيين بأية مناورة تشتمل على تساهل وتسامح في طرحه وذكْرِه، فأقلُّ نسمة ستهيِّجُ الوضع، وأخفض صَوْتٍ سيقلبه عليهم، وأخفى نداءٍ سيودي بهم!

وقد يصحُّ تطبيق "الأكثر خفاء أكثر ظُهوراً" هنا، لِذا كان الإمعان في التغييب والإصرار والحرص عليه!... وعلىٰ الفرضين والرأيين، فالقضية قائمة والأزمة في أشدِّ صوَرِها.

لعَمْري، ما هو موقع «الحجَّة بن الحسن» عليه السلام في المشروع الحضاري الذي أخذت تتبلور صورته وتكتمل معالمه النهائية، ويُصار إلىٰ تقديمه إلىٰ العالم، سواء أكان المسيحي أو الملحد، كنظرية مثلىٰ لخلاص البشرية وتحقيق سعادتها المفقودة؟ (ومن نافلة القول إننا لا نتحدَّث عن العلاقات السياسية والدبلوماسية).

وهٰذا السؤال بالذات (دون غيره)، مُوَجَّه إلىٰ جهات لا يعدمها الإخلاص والنزاهة، ولا تخلو من أمانة ووَثاقة وحِرْصٍ صادق علىٰ الدين والمذهب، وهي بصدَدِ مخاطبة البشرية جمعاء...

ولٰكن هل يصحُّ أن يكون ذلك علىٰ حساب الهوية، ويصبُّ في تمييعها!؟ وهل من الإنصاف أن يكتسب أحدٌ سلطته، ويحظىٰ بفرصته، ويأخذ دوره (إن لم نقُل مشروعيَّته) في العمل الإسلامي، من مقام نيابة «وَليِّ العصر» عليه السلام (بلحاظ كونه ثمرة وإفرازاً من إفرازات حركة المرجعية التي أوْجَدَت الحالة وأسَّستها، أو بإفراز ومُعطىً مباشر لمن يتبني نظريَّة "ولاية الفقيه") ثم يتجاهل هٰذا "الأصل" علىٰ هٰذا النحوِ والحدِّ في خطابه ومشروعه؟...

فيُقدِّس التكنلوجيا ويمجِّدها، ويزهو بالتطوُّر التقني الذي بلَغَه، ويهوي بـ"الحضارة" إلىٰ هٰذا المفهوم، ويحسب أنه التحق بركبها، وهو يصنع صاروخاً أو طائرة أو قنبلة نوويَّة! والحال أنه مهما بلغ ووَصَلَ في هٰذا الحقل، فهو مقلِّد للآخر، تابع فيه لمن يستعرض أمامَه، ويتوجَّه إليه بخطابه... وما هي في الحقيقة والواقع إلّا بضاعتهم رُدَّت إليهم!

المأساة أن يزهو الإسلاميون بالتكنلوجيا والصناعات، ويغفلون معدِن العلم والأخلاق، ويتجاهلون ناموس الوُجود، والسبب المتَّصل بين الأرض والسماء؟!

ماذا قدَّمت هذه العلوم للبشرية وماذا أخذَت منها في المقابل؟

لماذا ننسلخ عن هويتنا الحقيقية وبضاعتنا الأصلية، أي المعرفة والأخلاق، ونؤخذ ببريق الآلات وزبرجها؟

في عام ١٧٥٠ عرضت أكاديمية «ديجون» جائزة لأحسن بحث في موضوع: هل حقَّقَت العلوم نفعاً للبشرية؟ وكانت من نصيب الفيلسوف «جان جاك روسُّو» الذي جاءت إجابته بالسلب، فقد أكَّد "أن العلوم والفنون هي أسوأ أعداء الأخلاق، ولأنها تخلق الحاجات فهي مصادر للرقِّ"، ويستطرد: "كيف يمكن فرض الأغلال على أُولئك الذين يمضون عُراةً مثل الهنود الحمر؟".

وأستميح القارئ الكريم هنا وأستأذنه، وأنا أدعوه إلى خلوة أرجع فيها إلى عالم قد يبدو غريباً:

في بلدي، قبل أن يكتشفوا النفط كان للحياة طعمٌ آخر، كان ربُّ الأسرة يغيب أربعة أشهر في رحلة "الغوص"، أو ستة إذا خرج في "السفر" للتجارة إلى «الهند» أو «إفريقية»، لم تكن هناك أجهزة اتصال تطمئن أهله على سلامته، لذا كانت الأُم وأولادها صغاراً وكباراً، أكثر حرصاً على رضا الله، على عدم معصيته وإغضابه، عسى أن يستجيب دعاءهم ويُعيد إليهم أباهم سالماً!

كانوا يقضون وَقتاً أكثر في العبادة والدعاء، بمزيد من الإخلاص والتفاعل، كانوا يُخرِجون ـ على فقرهم ـ الصدقات ويعقدون النذور... كانت حاجاتهم إلى الله أكبر!

لم يكن هناك وَقُود، ولا "مكائن ديزل" تحتاج إلىٰ الوقُود، لم يكن لسفينة والدهم إلّا الرياح، فكان وصَحْبه يجهدون في العبادة ويُخلِصُون في التوكُّل علىٰ الله ليسوق أشرعتهم يمخرون عُباب البحار والمحيطات نحو «كلكتا» و«الزنجبار»...

كانت حاجتهم إلىٰ الله أكبر.

لم تكن عندهم ساعة منبِّهة، توقظهم من النوم!

فقد كانوا يُبادِرونَ إلىٰ النوم من أول الليل، فليس هناك ما يسمرون لأجله، أو يقضون سهرتهم معه، فيستيقظون مبكِّرين، ويتعبَّدون ربَّهم بنشاط وهِمَّة لم تنَلْ منها تخمة عشاء ولا برودة أجهزة تكييف الهواء. ولم يؤثر في صلابة أجسامهم وخشونتها فرُشٌ وثيرة ووَسائدُ بحَشْوِ الديباج، فلم تنقلب لَدِنة وتصبح ليِّنة، وبقيت علىٰ قوَّة القطن وخشونته... تلك الخشونة التي أوجدت فيهم مناعة جعلت في طِبِّ الحاجَّة «أم ياسين» وعقاقيرها الكفاية! وجعلتهم في الحالات المستعصِية يلجؤون إلىٰ ربِّهم ويتوسلون إليه عسىٰ أن يرحمهم ويشفي مريضهم... لم تكن هناك مُستشفيات ولا أدوية ولا أجهزة يعتمدون عليها، ولا «لندن» يُعلِّقون الأمل في أن تُجيب اضطرارهم وتكشف السوء!

هل قرَّبتنا المَدَنيَّة إلىٰ الله أم أبعَدَتنا... لست أدري؟

هل جاءت المَدَنيَّة وَسيلَة تساعدنا في أداء الغاية من خلقنا والعِلَّة من وجودنا (أي المعرفة والعبادة) أم أصبَحَت شغلنا الشاغل وهدفنا وغايتنا... لست أدري؟ ولست أدري أيضاً ما الذي أراده «روسُّو»، ذلك الفيلسوف المعقَّد من إجابته ولا سبب منحه الجائزة...

إنما أدري أن كبح جماح النفس أمام "الحاجات" ومنع الاسترسال في طلبها أمرٌ في حكم المستحيل.

وما دامت التكنلوجيا والمدَنِيَّة مُستعدَّة لِرفد الحياة، فإنَّ "الحاجات" ستتولَّد وتتوسَّع، وستقودنا في يوم من الأيام إلىٰ أقصىٰ نقطة في خطِّ المادة ومَسيرتها، وآخر موقع في عالم المعنويات والروحانيات... حيث أبعد ما نكون عن الله عزَّ وجَلَّ! عندها سيتغلب طواغيتُ المَدَنيَّة ومصادُر الرقِّ كما يُعبر «روسُّو»، علىٰ بصيص النور المنبعث من وَمَضَات الفطرة التي زرَعها الله فينا، فننسلخ عن إنسانيتنا إلىٰ الحيوانية، وننقلب من عبودية الله إلىٰ الوثنية!

من عطاء الفطرة النقيَّة غير الملوَّثة بالماديَّة، ومن عمق الفهم الصحيح لمسيرة البشرية، ومن صميم الفكر الإسلامي الأصيل، تحدَّث «الإمام الخميني»، ذلك الفقيه العارف فقال:

"كنت أفكِّرُ لو نستطيع أن نبني سوراً مثل سور الصين بين البلاد الإسلامية والغرب، سوراً أرضياً وجوِّياً! كي تنجو البلاد من أيديهم، حتىٰ لو لم نحصل علىٰ مَدَنِيَّتهم وتطوُّراتهم... فنحن الرابحون!".

وكأنه يتلو: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، أو يرتِّل "براءة" وما تلاها حتىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨﴾ (التوبة).

ثم إنه ـ في البُعد الآخر ـ يستوحي من سيرة «رسول الله» ﷺ في وَضْع حدٍّ لزينة الحياة الدنيا، وتعيين سقفٍ للسعي في العيش، ونطاقٍ في طلَب الرفاه والسِعَة، والتماس حدٍّ للرغَدِ والراحة والدَعَة، بما يمنع البطَر والترف، ويقمع الجشَع والسَّرَف.

فقد ٱشتدَّ الحرُّ علىٰ الصحابة، فطلبوا من «النبيِّ» أن يأمر بالمسجد فيُظلَّل، فأجابهم ﷺ وأمر فأُقيمت فيه سواريَ من جذوع النخل، ثم طُرِحَت عليه العوارض والخصف، فكان يقيهم الشمس، حتىٰ أصابهم المطر، فجعل المسجد يكُفُّ عليهم، فقالوا : يا «رسول الله» لو أمرتَ بالمسجد فطُيِّن، فأبىٰ ﷺ وقال: "لا، عريشٌ كعَرِيش «موسىٰ»". ولم يزل المسجد كذلك حتىٰ قُبِضَ.[1]

ومن نافلة القول إنَّ الإسلام ليس ضدَّ التطوير والتصنيع والعمران وشتىٰ مظاهر المدَنيَّة، ولا حتىٰ ضدَّ الرفاه والراحة وما يصاحب إقبال الدُنيا، بل لعلَّ ذلك مما يقوِّي المسلمين ويُرهب أعداءهم... ولكنَّه ضدَّ إقحام الدين في هٰذه "الدنيا"، والتنظير لهٰذا التطوُّر المدَني، وإيجاد موقع له في صميم الفكر الديني وجَوْهَره. وضدَّ الأرتكاز عليه وجعله المحور في عرض المشروع الديني، حتىٰ يقود ـ بالتلازم ـ وينتهي إلىٰ زَهْوِ المسلم بفتوحات «الأُمويين» وفَخْرِه بأمجاد «العباسيين»، فيُباهي ويتحسَّر علىٰ عصر «هارون الرشيد» ويتطلَّع إليه كعصر ذهبي!

إنه ـ ببساطة ـ أمرٌ عارض، ضمن مسيرة الحياة ومقتضياتها في إقبال الدنيا وإدبارها، وتقلُّب أحوال البشر وأطوار البشريَّة، لا شأن لنا به ولا نسمح أن تنصبَّ عليه ٱهتماماتنا. هٰذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ، نحذر من سلبياته وأخطاره، بأن نجعل سقفاً وحَدّاً للتعاطي معه، فلا يتحوَّل إلىٰ "طاغوت"، ولا نستغرق فيه، ونفسَحَ له حتىٰ يرفد "الغفلة" و"الأنشغال" عمَّن يجب أن يكون مرتكَز حياتنا ومحور حركتنا، أي «إمام زماننا» عليه السلام.

---

(١) (وسائل الشيعة) (ج ٣ ص ٥٠٥ ح ٣).

كما لا نرىٰ مانعاً في أصل الحوار مع الآخر، ولـٰكن ماذا يريد دعاة الحوار (وفيهم المتنسبون إلىٰ مدرسة «الإمام الخميني» ـ صاحب العبارة السابقة ـ والمنادون بخَطِّه، أو في الحقيقة المنتحلون لخطِّه!) مع الحضارات الغربية والشرقية أن يأخذوا منها؟ ثم ماذا نريد أن نقدِّم في هـٰذا الحوار ونعرض... ما هي بضاعتنا؟

إذا كان لنا حديثٌ مع الحضارات وخِطاب إلىٰ الأُمم ورِسالَة إلىٰ الشعوب ونداءٌ إلىٰ الإنسانية، فهو خِطاب الأخلاق والقِيَم، ورسالة نبذ المادية، وكشف طاغوت العلوم والتقنية، وغُول الأهواء الماديَّة الذي سَحَقَ الأخلاق ودمَّر الإنسان، وإذا كُنَّا قد عجزنا عن كَسر هـٰذا الصنم بسواعدنا ومعاوِلنا، وأردنا تغيير الوسيلة إلىٰ أُخرى سلمِيَّة، فلنبقَ متمسِّكين بأهدافنا ولنرفع أصواتنا وننادي بخطابنا الأصيل، بأية آلية ووسيلة كانت:

يا أيتها البشرية التعِسَة التائهة،
المثقلة بآلام المادية...
المتوجِّعة من جراحات الجهل والفقر والمرض...
المنهكة من وَيلاتِ التخمة والبطَر والترف...
كفاكِ هواناً تحت سنابِكِ غرور الطبقية
واستعلائها،
كفاكِ خضوعاً للقوارين والرأسمالية الهوجاء،
كفاكِ أنيناً تحت سياط الجلادين وحنيناً وراء
قضبان سجون الظَلَمة المستبدين،
كفاكِ عمىً أمامَ صنم الإلحاد الأخرق...
كفاكِ إدانة لـ «يهوذا» وندبة لـ «المسيح»،

فوالله ما قتلوه ولا صلبُوه،
ها هو في الملكوت الأعلىٰ ينتظر ما تنتظرين!
هلمِّي إلىٰ الباب الوحيد للخلاص، والمفزع
الأخير للنجاة، وٱبحثي عنه:
أبـ «رضوىٰ» هو أم بذي «طوىٰ»؟
في «الجزيرة الخضراء» يضرب بِصَلاته وتَـدَ ٱستقرار
الأرض أن تسيخ، أم في «كربلاء» يُقيمُ مأتم وِتْرَ
الله الموتور ويضجُّ بالعزاء؟
تعالَيْ وٱحضري الموسم والموقف، لعلَّ عينك
تكتحل بنظرة إليه
في «منىٰ» أو «المشعر» أو «عرفات»...
وعندها ضجِّي بالشكوىٰ وٱرفعي الصوت
بالإعوال أن يا «ٱبن الحسن»:
لقد طال الصدىٰ!
شرَّقنا وغرَّبنا، أنجَدْنا وأتهَمْنا،
وها نحن نعود ونلقي العصا والقياد، فخلِّصنا...

لعَمْري، كيف يُذكر الجميع ويُنسى مَن بيمنه رُزق الورىٰ! وبه يُنزل الله الغيث ويُمسِك السماء أن تقع علىٰ الأرض، ومَن لولاه لساخَتِ الأرضُ بأهلها...؟

نعم، غيَّبتهُ الغفلة وهي تتجاهل أنَّ الشمس تستأذنه في بزوغها، والنجوم في تلألُئِها، والبرق في لمعه، والرعدُ في قصفِه، والريح في عَصْفِها، ووَرَق الشجر في نضارته، والثمر في ينوعه، والنسائم في هبوبها، والجداول في ترقرقها...

كيف لا، ونبي الله «سليمان» عليه السلام لم يَنَلْ ما بلَغ، ولا أُعطي ما أخَذ وملَك، إلّا بِحُبِّه ووَلائه وخضوعه؟ و«الكليم» إنما أُلبِسَ حُلَّة الاصطفاء، لما عهدوا منه الوفاء، و«رُوحُ القُدُس» في جِنان الصاقُورة، ذاقَ من حدائقهم الباكورة... (١)

نعم فقد أسلَمَ له كلُّ شيء تسليماً، بادرت إليه الملائكة وتنافس فيه الأنبياء والأولياء، وهم في عوالم الأنوار والأظِلَّة والأشباح والذرِّ، فجاءت مقاماتهم ورُتبهم ونبوَّاتهم في هذه الدنيا على قَدْر هممهم في حُبِّه ووَلائه في ذلك العالم، فحَظِيَ بعضهم وصارَ من أُولي العزم. وخضعُوا له خضوعاً بلغ السجود، فهو النور الذي كانت عذباته بجبين «آدم» تتطلَّع...

فاسجُدُوا ذُلاً له في مَن سجَد * فلَهُ الأملاكُ خرَّت سُجَّدا
إذ تجلَّى نورُه في «آدم»

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة)... وكم يا تُرىٰ عدَدُ الذين لحقوا بإبليس وحذوا حذوه من البشر؟

لسنا بصدد قراءة للنيَّات ومحاسبة على أهداف تقَعُ خلفَ هذه الظواهر، ظواهر التغييب وأهدافه...

إنما نحن في سبيل دراسة هذه الحالة الخطيرة من منطلق حُسنِ النيَّة في السواد الأعظم ممن يمارسها، لا نستثني إلّا "أئمة الضلال" وقادَة خطِّ التغييب هذا، نريد بيانَ وُقوع تلك الغالبية المستضعَفة، ضحيَّة لهذه القِلَّة المفسدة وكيدِها.

---

(١) (البحار) (ج ٢٦ ص ٢٦٤ رواه عن كتاب (المختصر) لـ «الحسن بن سليمان»).

ولعلَّ العِلَّة، أو بعض العِلَّة (في القدْر المتيقَّن)، في هٰذا الأنحراف يعودُ لِغياب وٱستضعاف الفِكْر الأصيل، وإخفاقه في عرضٍ يتدارك ما يُفسِدُون، فكانت السوق رائجة بتلك البضاعة، وليس ثمَّة بديل معروض يسمح بالمقارنة، كما أنه ليس من شأن العامَّة والسواد الأعظم هٰذا أن ينهض بالبحث والتنقيب والوصول إلىٰ الحقائق بنفسه... فكان أن تناول المبذول من طعام القوْم دون نظر!

إذن، وَجَدْنا أنَّ التغييب معلولٌ للغفلة، وهي وليدَة نزعة نفسيَّة تصبُّ علىٰ ٱستصحاب الإنسان لأوضاع حياته القائمة لِوَهْمٍ صوَّرَ له الراحة والسعادة في هٰذا السلوك...

وبعد، فهي (الغفلة) مرهونة في دوامها وٱستمرارها للدور الذي يقوم به أدعياء الولاية الذين ٱنتحلوا وٱغتصبوا مَقام الإمرة والرئاسة من أصحابها الحقيقيين.



❖ كشف حزب التغييب وٱفتضاح إمامه!

الحق أنَّ ما دعاني إلىٰ الكتابة في هٰذا الموضوع والحماس لِعرضِه ومعالجته، لم يكن أصله، بقدْر ما كان ظهور أحد أكبر دُعاة التغييب وقادته، بما يصدق عليه "إمام" هٰذا الخط وكبيره في عصرنا الحاضر! ومجاهرته بهٰذا الدوْر، وإعلانه في إدارة هٰذا الطرْح وتولِّيه بالرعاية والٱهتمام، ومباشرته بالتوجيه المعلن والخفي، والإمداد المالي والدعم السياسي والغطاء الفكري و"الشرعي".

وبٱختصار، فتغييب «المولىٰ» عليه السلام عن حياة المؤمنين، هو مشروعه، وهو بشخصه وحركته وحزبه مشروع تغييب!

فوجَدْتُ الكتابة عن الفكرة الآن، وقد تحدَّدَ لها شاهدٌ وشاخص يُشار إليه، ستكون أيسر إبلاغاً وأكثر وَقْعاً ووُصولاً ونفعاً، وستكفيني مؤنةً كنتُ سأتحمَّلها وأنا أعرض لِطَرح فكريٍّ بَحْت، يحكمه العُسر والجفاف، وسأجده ٱنحصر في مخاطبة النخبة، وهي علىٰ خُطورتها ودَوْرها الريادي، إلّا أن تحقيق أهداف الطرح والوصول إلىٰ غاياته وإدراك المحصِّلة والجنْي يأتي غالباً من دَوْر العناصر الحركيَّة الفاعلة، والأيدي العاملة ميدانياً في الساحة، مع عامة المؤمنين من مختلف الطبقات الثقافية... فأردْتُ للخطاب أن يتوجَّهَ إلىٰ هٰؤلاء، عسىٰ أن يتأثروا بالفكرة ويقتنعوا بها، فيبادروا للعمل وٱتخاذ المواقف.

وهٰؤلاء صَبَغَتْهم الحركيَّة بطابعها، فهم "عمَلِيُّون" واقِعيُّون، ليسُوا بنظريين، والنموذج والمصداق المحدَّد، والعنوان الشاخص هو الأقرب إلىٰ تحسُّس هٰؤلاء وتلمُّسهم ومعايشتهم لأية قضية يُراد لهم التفاعل معها والحركة فيها.

وها أنا أعرضها من هٰذا الواقع، وأنطلق من هٰذه الزاوية...

لقد اطَّلَعْتُ على أدبيات هذا الحزب، ابتداءً من دستوره وثقافته الحركية، وانتهاءً بنشَراته ومطبوعاته الإعلامية، ومُروراً بنظامه الداخلي وضوابطه التنظيمية، سواء التي دُوِّنت في فترة العمل السريِّ في «العراق»، إبّان القهر البعثي والقمع الصدامي، والأُخرىٰ التي صدرت أيام "الرخاء"، في «إيران» الجمهورية الإسلامية، حين أُفسحَ لهم وخرجوا مما كانوا فيه، مما قطَع طريق الاعتذار للضلالات والانحرافات التي تملأ أدبياتهم، والتذرُّع بالظروف والملاحقات الأمنية القاسية التي حالت دون كتابة متأنية وتسجيلٍ متين لأفكارهم، التي كانوا ينزِّهونها ويتنكَّرون لبعضِ الخبط والخلط الظاهر الذي يشوبها... كما قرأت أعمال "إمام" حزب التغييب وكبيره، السابق المتقدم منها واللاحق المتأخر، من مقالاته في "الأضواء" و"الهادي" و"الحكمة"، إلىٰ "خطوات علىٰ الطريق"، حتىٰ آخر نتاجاته المنشورة عبر "دار الملاك"، كما استمعت إلىٰ محاضراته وتتبَّعتُ كلماته في الصحف والمجلّات ومختلف وَسائل الإعلام المرئي والمسموع والمطبوع، وما فاتني إلّا قليل...

ووَقفت علىٰ قاسم مشترك يجمع جملة كبيرة من هذه الكتابات والمقولات، بحيث لا يتردَّد أيُّ باحث في عدِّها أُسساً ومنطلقات فكرية ترسم الإطار العام لحركة الرجل وأُطروحته، وهي مهيمنة علىٰ تفكيره، حاكمة علىٰ ذهنيته بوضوح لا يقبل النقاش، ولا يتردَّدُ في عدِّها المراد الجِدِّي من متاهة الألفاظ ورنين العبارات التي أسرَ نفسه وأخذ يتخبَّط فيها، حتىٰ صارت سِمَته الالتواء. هذا، مع ملاحظة أنني انتقلت بعيداً عن أجواء تصيُّد عثرة هنا، وتسجيل زلَّة هناك، والتقاط شاردة صدَرَت في فَوْرة غضب، أو وارِدَة جاءت في ظرف تقِيَّة، ثم الاعتراف بهذه وإنكار تلك، والدخول في مهاترات التأويل والتوجيه!...

ٱنتقلتُ إلىٰ حقائق علميَّة دامغة، فرَضَها التتبُّع والاْستقصاء القريب من الشامل، والاْستقراء الذي يناهز التام، لـجُلِّ ما كتبه هـٰذا الرجل وقاله، مما سبَقَ ووَاكَبَ وأعقَبَ "الندوات" (إلقاءً من خلال الأشرطة المسجَّلَة، أو كتابةً أعقبت التنقيح!)، وهـٰكذا الكُتُب والمواضيع المعاد طبعها بصياغة حذَفَت وغيَّرت ضمن قاعدة "الاْنحناء للعاصفة" وٱنتظار عَوْدة الهدوء وسكون فورات الغضب، علىٰ طريقته المفتَضَحة في التحايل والتكتيك المرحلي، لا التراجع والتوبة!

وقد صرفتُ في هـٰذا السبيل وَقتاً عزيزاً، قضيته وأنا "أُلوِّثُ" نظري بترَّهات وسخافات وإسفاف، وبذلت جهداً مُضنياً، كما دفعت ثمناً باهِظاً من حرب التسقيط والتشويه التي لم توفِّر كذباً ولا بهتاناً ولا قذفاً، أدناه العمالة (ولَكَ أن تقيس!)... فرأيت، بعد كلِّ هـٰذا وذاك، حُرمَة كتمان النتائج وما توصَّلت إليه، وعدم عرضها علىٰ الملأ.

وحتىٰ لا أتجاوز الدِقَّة العِلمية، أعود لأُصحِّح التعبير الذي أطلقته: "أُسس ومنطلقات فكرية"، فهي في حقيقتها مجموعة من الرغبات المُلِحَّة الكامنة في نفسيَّتِه المريضة، وقد ٱختمرت علىٰ مرِّ الأيام، فٱكتسبت شكلاً يُوهم بالعِلميَّة، وما هي إلّا أماني وآمال تتنازع لتبرز، وتتحيَّن الفرصة لتظهر في مقالات ومحاضرات! وهي من الضحالة والاْضطراب بمكان لا يسمح بإطلاق مُصطلح "الأُسس الفكرية"، إذ إنها مجرَّد حشد وسَرْد مُكرَّر لمفاهيم أوّلية مما يمكن أن يحمله أيُّ مثقَّف ٱطَّلَع علىٰ قُشور علوم الإسلام دون لُبابها، أوغَلَ في إعمال المغالطة فيها، وأسرف في إخضاعها لأساليب الخطابة... ثم حظيت بكمٍّ هائل من التغطية والدعاية الإعلامية التي وارَت الأخطاء الكثيرة، وتستَّرت علىٰ الثغرات الكبيرة.

وعموماً، فإنَّ أقلَّ ما يمكن أن يُقال في حقِّها إنها ليست علميِّة، ولا تجتذب إلّا العوام والسطحيين (وهم السواد الأعظم)، ومن الإجحاف أن يطلق عليها "نظرية" أو "فكر"...

إنَّ خطَّ التغييب يعتمد في جوْهرِه على ثقافة عامة، يبدو أنها تشكَّلت من هجين التقاطي:

استمدَّ شيئاً من "الفكر المادي"، وبعضاً من "المدرسة الوهابية"، وكثيراً من "عقدة" الحضارة الغربيَّة ومقتضيات مجاراتها، والسعي الحثيث، والإصرار على عرضٍ يُظهر الإسلام مُنسجماً ومتوافقاً معها، خصوصاً في شُبهة "إعمال العقل"!

❖ ❖ ❖

❖ تحديد موقع النزاع

من الـواضح البيِّن أن هناك تركيزاً عجيباً وإصراراً غريباً ـ في خطِّ التغييب ـ على إنكار الغيب وخفض هامش الإيمان به إلىٰ أدناه، وعلىٰ النيل من فكرة "الولاء" وخصوص معالمه ومظاهره، وعلىٰ تمييع مستوىٰ الألتزام والتعبُّد لدىٰ المؤمنين. وهناك لائحة سوداء بهذه الموارد، لربما يدخل سردها في المطوَّلات، وقد كفتنا بعض الكتب التي صدرت أخيراً المؤنة، فليراجعها مَن أراد من المعنِيِّين.(١)

---

(١) منها كتاب (خلفيات كتاب مأساة الزهراء) لـ العلامة المحقق «السيد جعفر مرتضىٰ العاملي». وقد صدر الجزء الأول منه مشتملاً علىٰ ذكر ٢٧٨ مورداً أحصاها المؤلِّف علىٰ هذه الجماعة، شكَّلت مظاهر الأنحراف والضلال العقائدي الذي يتبنَّاه هؤلاء وينشرونه، وبالتالي مُسوِّغات ودواعي تصدِّيه لمواجهة هذا التيار الخطير.

وقد نهض «السيد جعفر مرتضىٰ» بهذا الدور بمباركة من الحوزات العلمية في «النجف الأشرف» و«قم المقدَّسة»، وبدعم مباشر من المرجعية العليا للطائفة المتمثلة في الآيات العظام: «الميرزا جواد التبريزي» و«الشيخ محمد تقي بهجت» رحمهما الله و«الشيخ الوحيد الخراساني» و«السيد محمد الشاهرودي» و«السيد محمد سعيد الحكيم» دام ظلهم الشريف... وقد ألَّف في ردِّ شبهات القوم ونقض آرائهم: (مأساة الزهراء)، (لماذا كتاب المأساة)، ثم كان (خلفيات).

وهناك كتب أُخرىٰ في الباب نذكر منها: (ملاحظات) لـ «السيد ياسين الموسوي» الذي كان له شرف السبق، و(محاكمات) لـ «محمد جواد العاملي»، و(حوار حول الزهراء) لـ «السيد هاشم الهاشمي»، و(جاء الحق) لـ «الشيخ محمد أبوالسعود»، و(الفضيحة) لـ «السيد محمد العاملي»، و(الحوزة العلمية تدين الأنحراف) لـ «السيد محمد علي المشهدي»، و(الأنبياء فوق الشبهات) لـ «السيد محمد محمود مرتضىٰ»، و(الهجوم علىٰ بيت فاطمة) لـ «عبدالزهراء مهدي»، وغيرها... كما صدرت بعض الكتب بالفارسية منها: (آتش در خانه وحي)، و(در خانه فاطمه چه گذشت) لـ «السيد أبوالحسن الحسيني».

←

هناك تعمُّد وحِرْصٌ وإصرار علىٰ إهمال أيِّ نوع من العناية بأشخاص «الأئمة المعصومين» عليهم السلام وحياتهم وسيرتهم، والبحث في ذواتهم وخصائصهم، مهما كانت تشكِّل فضيلة وكرامة، وتزيد في مستوىٰ المعرفة لَدىٰ المؤمن ودرجة إيمانه وولائه، وترسِّخ حُبَّه وعشقه لأوليائه... يزعمون أنهم يحصرون ذلك ويوقفونه علىٰ ما له دَوْرٌ في التشريع والتبليغ فقط، ومعلوم أنَّ هـٰذا مما يقف بمراتب «الأئمة» عليهم السلام ومقاماتهم، وبعصمتهم عند أدنىٰ درجاتها وأقلِّ سطوحها. ولا يكتفون بالتقصير والتفريط، بل يعمدون إلىٰ الهجوم والتخريب، فيبادرون إلىٰ إلصاق الغُلُو وإلحاق "التخلُّف" و"الرجعيَّة" بكلِّ مَن خالفهم في هـٰذا النهج، وصارَ يذكر الفضائل ويذكِّر بالمنازل والمقامات، وإن ٱستند إلىٰ أدلَّة عقلية تامَّة، ونقلية دامغة!

فـ «الأئمة المعصومون» عليهم السلام لدىٰ هـٰذه الجماعة وفي نظرهم، مجرَّد رواة ونقَلَة لأحاديث «النبيِّ» صلى الله عليه وآله، لا ينبغي عرضهم للأُمة خارج هـٰذا النطاق، ولا دَوْرَ لهم ـ أصلاً ـ خارج هـٰذا الإطار، غاية الأمر أنهم يتميَّزون عن غيرهم ويتفوَّقون علىٰ سواهم من الرواة، بالعدالة والوثاقة، لذا فإنَّ الأخذ عنهم أفضلُ وأسلَمُ من الأخذ عن غيرهم، فالعصمة تنفي عنهم التقوُّل والدسِّ...

← ولَعلَّ المواقع الإلكترونية تكون أقرب منالاً وأسهل بلوغاً، فليراجع مواقع:

* «السيد جعفر مرتضىٰ العاملي»: www.alhadi.org
* «السيد هاشم الهاشمي»: al-meshkah.com
* ضلال نت: www.zalaal.net

وفيها عرض شافٍ لِكثير من موارد الأنحراف، مع قوائم كتب الردود، مشفوعة بالإرجاع إلىٰ المصادر المحددة، ومسندة بالوثائق المصوَّرة. ■

هـٰذه هي "الإمامة" وحدُودها الخطيرة في فهمِهم!

من هنا فإن ذكر فضائل «آل محمـد» علىٰ ٱختلافها، كالحديث عن تفاصيل المعراج، وثمار الجنة، وكيفية تكوُّن نطفهم الطاهرة، وتكلُّم «الزَّهراء» عليها السلام وهي حمل في بطن أُمِّها، وولادتها، وأن «حواء» و«مريم» و«آسية» والحور، كُنَّ قوابل لأُمِّها «خديجة» عليها السلام، وكيف عُقِدَ قِرانها في السماء، ونزول «جبريل» لمؤانستها بعد رحيل «والدها» صلى الله عليه وآله، أو وِلادة «أميرالمؤمنين» عليه السلام في جوف الكعبة، أو شهوده ٱحتضار وقبض روح كلِّ إنسان، وتوسُّل الملَك «فطرس» بِمَهْدِ «سيِّد الشهداء» عليه السلام، أو تلاوة «الأئمة» عند ولادتهم القرآن الكريم، وأنهم يعلمون الغيب وعندهم الأسم الأعظم، ويتمتَّعون بالولاية التكوينية، وأنهم كانوا أنواراً يحدقون بعرش الله... وما إلىٰ ذلك مما زخرت به موسوعاتنا الروائية المعتبرة، ودلَّت عليه المباحث الكلاميَّة، وقامَت عليه البراهين الفلسفية، ودَعَمْته الشواهد والإثباتات العرفانية. وهـٰكذا البحث في الكمالات الروحيَّة وتناول الخصائص الجسمانيَّة لـ «المعصومين» عليهم السلام، من قبيل ضرورة أن يكونوا من أسلاف مؤمنة مهما عَلَت، لم تنجِّسها الجاهلية بأنجاسها ولم تُلبِسها من مدلهمَّات ثيابها، وأنهم ذوات طاهرة لا تنطوي علىٰ نجاسة ولا يلحقهم شَيْن، وتناقل أوصافهم والحديث عن شمائلهم وسجاياهم، وحالاتهم الشخصية...

كلُّها من ضروب "الترف الفكري"، ومما لا طائل من ورائه ولا ثمرة فيه، ويدخلونه في: "عِلْم لا يضرُّ من جهله ولا ينفع من علمه"! وهو "إسراف" يُضيِّع علىٰ المؤمن ما ينبغي له الآنشغال به وصَرْف الوقت والجهد فيه، أي العمل بالأوامر والنواهي، والعبادة والتقرُّب إلىٰ الله بها، ثم الدعوة السياسية وتنظيم الناس في الأحزاب!

بل إنَّه أدخَلَ كلَّ تحقيق وتـدقِيق، وتمحيـص عِلميٍّ في الآيـات والروايات، يستجلي وُجُوَهها ويبحث في أسرارها ويكشف أعماقَها، حتىٰ في نطاق الأستدلال الفقهي، مما ميَّز حوزاتنا العلميَّة، وأكسبها العُمق الذي شهد له الخصوم والأعداء... عَدَّه في الترف الفكري، والأنشغال عن المضمون بالشكل! [1]

فتناقل وتداول روايات الفضائل والكرامات والمعاجز عند أرباب هذا الخط وفي فهمِهم، هو ضربٌ من "خطاب العوام" الذي ستكون محصِّلته الوحيدة أمتهان العقل والتفكير المنطقي، وتنمية الحسِّ العاطفي الذي يخدِّرُ الأُمة ويصرفها عن دورها الحقيقي في الدعوة! [2]

---

(١) انظر: ‹خطوات علىٰ طريق الإسلام› لـ «محمد حسين فضل الله» (ص ١٠٣).
وكم أوغَل في تسطيح الفكر وتمادىٰ في أبتذال أغزر المفاهيم وأعمقها إذ يقول: "وهكذا بدأنا نعاني من كثير من الفهم القلِق للنصوص الدينية في الكتاب والسنة، كنتيجة للأتجاه اللفظي في مواجهة قضية ‹الشكل والمضمون› مما جعلنا نواجه بعض الأجتهادات الفقهية، الخاضعة لهذا الأتجاه، التي تبتعد عن روح الشريعة وحيويتها، تبعاً لبُعدها عن روح النصِّ وظاهره"!

(٢) يقول: "الترف الفكري، مثل واحد يأتي ويتحدَّث عن الملائكة كيف هي؟ كم جناح لها؟ (كأنه لم يقرأ قوله تعالىٰ ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ يتناول نفس الأمر الذي يسخر منه!) أو في القبر كيف يأتي منكر ونكير مثلاً؟ أو يتحدثون أن «الزهراء» (ع) أفضل أو «مريم» أفضل؟ بعض الناس كل أفكارهم في الليل والنهار بأنه إذا ظهر «صاحب الزمان» (عج) ماذا يفعل؟ كيف يجاهد؟". انظر: "مجلة الموسم" (العدد ٢١).
ويذكر في تفسيره "من وَحْي القرآن": "لا بدَّ لنا من أن نلتفت إلىٰ الجهود الكلامية المضنية التي يبذلها علماء الكلام وغيرهم في إقامة البراهين علىٰ أن هذا النبي - لا سيما نبينا «محمد» (ص) - أفضل من هذا النبي أو ذاك أو من كلِّ الأنبياء، إن هذا حديث لا يجني منه الخائض فيه أية فائدة علىٰ مستوىٰ الدين أو الدنيا، سوىٰ إتعاب الفكر أو إرضاء الزهو الذاتي"!

وهي تُفقِد المؤمن الاْلتزام العمَلي السلوكي المطلوب، وتضيِّع عليه فُرَص العبادة والاْنشغال بالدعوة والعمل. وكأنَّ الأمر عندَهم محكومٌ بالتزاحم، بمعنىٰ أنَّ أيَّ عِناية بتلك، ستكون علىٰ حساب هٰذه، ولا مكان للجَمْع، ولا سِعَةَ ولا مندوحة للتوفيق!... والحال أن لا شيءَ يُنمي العمل ويزكِّيه ويرفع من شأنه كالمعرفة.

فضلاً عن "الكذب علىٰ الله ورسوله"![1] هٰكذا يعبِّرون عن النقل من (البحار) و(الكافي) و(من لا يحضره الفقيه)، والاْستشهاد بالروايات الواردة في كتبنا، ويجعلونها في مصافِّ (البخاري) و(مسلم)! فيسارعون بلا أدنىٰ حِيطة، إلىٰ رفض أي حديث فيه فضيلة وكرامة، أو ينقل مُعجزة، لمجرَّد اْستبعاد "عقلي"، وفي الحقيقة، لِعَدَم موافقته لأهوائهم المريضة وأمزجتهم السقيمة، ويتباهون: "إضرب به عرض الحائط"! فهو يخالف العقل، ويخالف القرآن؟!

إنَّ إحاطة «الأئمة» بعِلم الغيب، وإتيانهم بالمعاجز، اْستثناءٌ يُقدَّرُ بضرورته ودوره، وعلىٰ هٰذا يبنون تشكيكهم، وكأنَّهم فرغوا من إحراز حجم الضرورة وتحديد دَوْر الحادثة التي جاءت فيها المعجزة أو ظهر بسببها عِلْم الغيب في إثبات الحجَّة، كما فرغوا من اْعتماد الأمر قاعدة في التعاطي مع النصِّ المعصوم! ويرون أنَّ المعجزة لم تقع للأنبياء إلّا نادراً، ففي عمر «نوح» الممتد لم يحدِّثنا القرآن إلّا عن الطوفان، وكذلك «إبراهيم» وقعت له معجزة واحدة، هي عدم اْحتراقه بنار «النمرود»... فكيف بـ «الأئمة»؟ وهم (عندهم) أدنىٰ مرتبة، ولم تكن ثـمَّة ضرورة أن يحيطوا بطُرق السماوات، ولا أن يعلمَوا منطق الطير والسباع!

---

(١) انظر: (الندوة) (ج ٥ ص ٨٠).

ومن عجب يسخرون: كانت "مؤنة" إيقاظ «أميرالمؤمنين» من نومته أقلَّ بكثير من ردِّ الشمس وإيجاد "خلل" في حركة المنظومة الشمسية، يوقِّعُ ويبصِمُ جميعُ الفلكيين علىٰ ٱستحالتها! (١)

ويتساءلون مُستنكرين ومشكِّكين: ماذا سيقدِّمُ ٱنكسافُ الشمس يوم عاشوراء في عمَلِنا وتديُّننا، وماذا سيُؤخِّر؟ وماذا يفيدنا إذا صحَّ ما جاء في الأثر من أنه ما رُفع حجرٌ بعد مصرع «سيِّد الشهداء» عليه السلام في أقصىٰ الأرض وأدناها إلّا وكان تحته دمٌ عبيط؟ أو معرفة عدد الذين صرعَهم «العباس» عليه السلام من جيش «بني أُميَّة» في «كربلاء»؟ أو مَن الذي بدأ الحملة وسبَقَ لخوض الميدان: «بنو هاشم» أم الأصحاب؟ هل هٰذا من مسؤوليتنا وشأننا؟ هل سنُسأل عن هٰذه القضايا في القبر أو المعاد؟ لماذا الأنشغال بها إذاً؟!

---

(١) كنت قد ٱلتقيت في «دمشق» المرحوم العلامة «الشيخ محمد باقر المحمودي» عائداً من «لبنان»، فحدَّثني عن جولته هناك، وَعَدَّ "إمام الضلال" في مَن التقىٰ وزَار. فأنكرتُ عليه ذلك، فدافع أوَّل الأمر عنه وعن نفسه، لٰكن ما إن أطلعته علىٰ مقولات الرجل وآرائه مُسنَدة موثَّقة، وأثبتُّ له صِحَّة النسبة، ندِم وٱستغفر ربَّه، وعزم علىٰ التكفير عن موقفه (وإن كان مجرَّد زيارة، دون تصريح صحفيٍّ أو تصوير إعلاميٍّ، مما يضيِّق نطاق الدعم والاستغلال، لٰكنه أبىٰ إلّا أن يبرئ ذمَّته مما عَلِقَ بها)، بردِّ إحدىٰ ضلالاته، وقد وَقعَ ٱختياره علىٰ إنكار واقعة رجوع الشمس لمولانا «أمير المؤمنين» عليه السلام. فكتب رحمه الله كتابه: "كشف الرَّمس عن حديث ردِّ الشمس" الذي طبعَته "دار المعارف" بـ «قم» عام ١٤١٩، وهو مركز تحقيقي أسَّسه المرحوم «السيد عباس المهري».

ومن مكابرته وأخذه عزَّة الإثم، أنه سُئل عن واقعة ردِّ الشمس، بعد الأحتجاج عليه بكتاب «الشيخ المحمودي»، فأجاب بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٥ قائلاً: "لم تثبت عندنا صحَّتها بالرغم من أنها مرويَّة بعدة روايات"!

انظر موقعه الرسمي في شبكة الإنترنت: istif@bayynat.org.ib

ويهزؤون: ما لكُم ومسألة زواج «الحجَّة»، وكم له من الأولاد؟ ما هو نقش خاتمه؟ وكم أسم له وكم كُنية ولَقَب؟ هل "الخال" بخدِّه الأيمن أم الأيسر؟ هل هو أبيض البشرة أم أسمرها؟... ما لنا وهذه الأُمور! هل نحن مُكلَّفون بمعرفتها حتىٰ نتابعها ونصرف لها الوقت والجهد والأهتمام؟

ما لكم والخوض في الغيب؟ وتتبُّع علامات الظهور؟ لماذا الحديث عن "الجزيرة الخضراء" والبحث عن موطن غيبته؟ لماذا السؤال عن كيفية رؤيته وإمكانية لقائه؟ لماذا تتناقلون قِصَصَ المشاهدة في "مسجد السهلة" وفي الموسم والموقف والمشعَر، وتصرفون الوقت في البكاء عليه وندبته؟! تعالوا لنعمل بما يريده الإسلام ونسعىٰ في طريق القرآن، فهذا ما يريده مِنَّا «أهلُ البيت»...

ويغالطون ويصادرون: يسألون عن غيبة «الإمام» وهي "غيبٌ" لم يكلِّفوه، أنا لا أتصوَّر «رسول الله» غائباً، لأنه حاضرٌ في كلِّ صلاة أُصلِّيها، وكلِّ آية قرآنية أقرؤها، وكلِّ حكم شرعي أعمل به، فما دمت متديِّناً مُلتزماً فأنا لا أشعر بفراغ، ولا أبحث عن غائب!

حتىٰ حبِّ «أهل البيت»، بثُّوا سمومهم وزرعوا باطلهم فيه! فقالوا: نحن نعتبرهم ينفتحون من خلال رسالة الإسلام، لذلك قال «زين العابدين» "أحبونا حُبَّ الإسلام"، أي لا تضيِّقوا القضية وتحبونا حبّاً شخصياً، ليس لـ «لحسين» قيمة ذاتية، قيمته في عمله وجهاده وشهادته، ومن هنا جاءت كرامته علىٰ الله، أنفتحَ علىٰ الله بكُلِّه، فأنفتح الله عليه، لا تقدِّسوا الأشخاص، ولا تحبُّوا ذواتهم، ولا تعظِّموا الذوات، قدِّسوا الأعمال وعَظِّموها، إن عظمة «الأئمة» أنهم ينطلقون من «النبيِّ» في كلِّ تعاليمهم وأحاديثهم...

لذلك جازَ عندهم أن تتكرَّر «زهراء» أُخرىٰ في عصرنا إذا ما تهيأ لأمرأة ما تهيأ لـ «الزهراء» عليها السلام من ظروف وعوامل مكَّنتها من التكامل وبلوغ ذاك المستوىٰ! فلا خصوصيَّة ذاتية، ولا ٱجتباء إلهي ولا ٱمتياز ولا ٱصطفاء، فلماذا الأنفراد، ولماذا يمتنع التكرار؟ [1]

أما الحوادث التاريخية التي تنطوي علىٰ فضيلة تدعم الولاء لـ «أهل البيت» عليهم السلام وترسِّخه، أو علىٰ مَنقَصة ومَطعَن يؤكد البراءة ويوغل النفور من أعدائهم... فهي دائماً في نطاق التشكيك والإهمال، ولا تلبث أن تنتقل إلىٰ دائرة الإنكار والٱستهزاء!

بمثل هٰذه الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة تتحدَّد معالم مدرسة تكيد بالتشيُّع، وخطٌّ يريد نخْرَ أُسس البيت وتقويض أركانه من الداخل، بعد أن عجز الهجوم الخارجي عن ذلك.

وبمثل هٰذا النهج المُغالِط المدلِّس، والشعارات الواهية الجوفاء، لٰكن المضلِّلة الموهمة، والعبارات السخيفة الساقطة، لٰكن البرَّاقة الساحرة! تكوَّن نهجٌ من أخطر ما مرَّ في تاريخ التزييف والتحريف وحربها للأصالة والنقاء، إذ لم يأتِ كفراً بَواحاً، ولا باطلاً محضاً! وترتسِمُ واحدة من أتمِّ مصاديق كلمات الحقِّ التي يُراد بها الباطل، وتُطرح واحدة من أكبر عمليات التلبيس والإغواء، وخلط الصحيح بالسقيم حيث: ﴿تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (البقرة)، وحيث: "يُؤخَذُ من هٰذا ضِغْثٌ ومن هٰذا

---

(١) انظر: «الندوة» (ج٢ ص٢٣ وص٤٣٦). وأُلفِتُ هنا إلىٰ أن ذكر المصادر وتخريج النصوص المتضمِّنة للضلالات، مما هو في متناول أيِّ متصفِّح للمواقع الإلكترونية التي ذكرتها آنفاً، سيشكِّل تكراراً وسيتكلَّف حجماً وتوسُّعاً لم أرِدْه للكتاب، لذا تراني أكتفي بمورد أو ٱثنين علىٰ نحو الشاهد ليس إلَّا.

ضِغْثٌ فيُمزَجان، فهنالك يستولي الشيطانُ على أوليائه، وينجُو الذينَ سَبَقَت لهم من الله الحسنى "[1]، وتتشكَّل أكثر أسواق الباطل بهرجة وبريقاً، وإغواءً وإغراءً، ودَسّاً للسمِّ الزعاف في الشهد والعسل، وخلطاً للدُرِّ والجوْهر بالحجَرِ والمَدَر...

وما هُوَ والله شهد ولا عسل، ولا دُرٌّ ولا جَوْهرٌ!

إنها حَشْدٌ من مغالطات لا تتفوَّقُ عليها إلّا المصادَرات التي تكتنفها، تطيب للإباحيين والمنحلِّين، أن وَجَدُوا في "الدين" ما يحقِّق رغباتهم ويستر عوراتهم! وقرصَنة فكريَّة تغير على السذَّج المستضعفين من أيتام «آل محمد» في غيبةٍ من كفيلهم وراعِيهم!...

إنها أصواتٌ تتناغم، في عُمقِها وجوْهرِها، وفي مؤدَّاها ومحصِّلتها النهائية، مع ما نادت به "الوهابية" في دعوتها ورفعته في شعاراتها، من تشويه وسَحْق للتوحيد الصحيح، إذ انصرفوا عن التنزيه والتعطيل الذي يصون التوحيد، إلى نبذ آثار «النبيِّ» ﷺ المعنوية والمادية، وتحريم أيِّ نوع من تعظيمها، وعدُّوه كفراً وشركاً؟ فكلُّ عناية بخصائص شخص «النبيِّ» ﷺ، كلُّ حبٍّ له، كلُّ تغَنٍّ بجماله وكماله، كلُّ مظهر لِعِشْقه، كلُّ تعلُّق بآثاره، كلُّ قُبلة على ضريحه المبارك...[2]

---

(١) من الخطبة الخمسين في (نهج البلاغة).

(٢) يقول: "ما الفائدة من أن نمسك الشباك، أو نمسك الحديد؟ فكما قلنا هذا ليس حراماً كما يقول الآخرون، وليس ضرورياً، فيمكن ترك ذلك".

ويقول: "ليس من الضروري أن يذهب إلى قرب الضريح ولا يعني إن مَسَكَ الضريح، أنه يمسك جَسَدَ «النبي»، يكفي الزيارة من المسجد، وأن يتصوَّر الإنسان حياته (أي حياة «رسول الله»). وبهذا يمكن أن يحصل على ثواب الزيارة، مع الأبتعاد عن القبر، وعن الزحام، وربما تكون الزيارة أكثر ثواباً وأجراً". انظر: (مجلة الموسم) (العددان: ٣٣ـ٣٤).

وهٰكذا أُخرىٰ كلُّ حُبٍّ وتقدير لعترته، وكُلُّ تبجيل وتعظيم لِذُرِّيته، كلُّ عناية وتأكيد علىٰ الاَمتداد الروحي لـ «النبيِّ» ﷺ المتمثِّل في إمامة «أهل البيت» عليهم السلام وولايتهم...

كلُّ ذلك هو اَنصرافٌ ـ بنحوٍ ـ عن توحيد الله سبحانه وتعالىٰ، وضَربٌ من الشرك والغلُوِّ والقبوريَّة!

نعم، هٰكذا تُسدُّ الأبواب دون الاَرتباط بـ «الحجَّة» عليه السلام، وهٰكذا تُقطَعُ خطوط الاَتصال به، وتجتثُّ عوامل حضوره في حياة المؤمن... ومن هنا يبدأ "التغييب"!

ونحن سنكشف في ما يلي وُجُوه المغالطة والمصادرة واللبس التي يكتنفها هٰذا المنطق الخطير... ولٰكن ينبغي لي أن أُشير إلىٰ أن الكشف الحقيقي سيكون في روح المؤمن ونفسه، وهو ينفض عنها غبار الغفلة، ويستشعر ـ قبل ذلك ـ الفراغ، ويعيش الوحشة، ويعاني الغربة لاَفتقاده «إمام زمانه» عليه السلام، واَنقطاعه عنه.

وما الردود العلمية والأجوبة الفنية التي تدحض تلك المقولات وتكشف فسادها، إلّا خطوة علىٰ الطريق، فكم من عالِم بالردود والأجوبة ومحيط بها، يجاري هٰؤلاء في ما ينكرون وينشرون، ذلك للغفلة التي يعيشها، والسبات والبيات الدهري لا الشتوي أو الفصلي الذي يقضي فيه ويقبع!

❖ ❖ ❖

❖ الأنشغال بالتكاليف والعبادات الشرعية

إنَّ حادثة رفع المصاحف على الأسنة يوم «صفِّين»، والمطالَبة بالأحتكام إلىٰ كتاب الله، ومقولَة «أميرالمؤمنين» عليه السلام لـ «أبن عباس» ووَصيَّته بالأمتناع عن مُحاججة القوم بالقرآن "فإنَّه حمّالٌ ذو وُجُوه"، تقرِّرُ حقيقة وحالة عامة قابلة للتكرار بصُوَرٍ وأشكال متعدِّدة، وفي أزمنة مختلفة...

ويُقال إنَّ أصل تجزيء المصحف الشريف علىٰ ثلاثين جزءاً، وتقسيمها علىٰ النحو المتداول اليوم في مجالس ختمات القرآن والترحُّم علىٰ الأموات، يعُود لِواقعة خُطبة الإمام «زين العابدين» عليه السلام في مجلس «يزيد» بـ «الشام»، حين لاحَظَ أنشداد الناس وأنصرافهم إليه، وإنصاتهم لحديثه، وإصغاءهم لِقوْله، فأمر بتوزيع المصاحف علىٰ الناس لينشغلوا بقراءة القرآن، فهو "كلام الله" الذي لا يعلىٰ عليه! ولما كان عدد المصاحف أقلَّ من عدَد الحضور، أمرَ بتجزيء المصاحف حتىٰ تستوعب أكبر عدَد، وعندما فشلت الخطَّة أمر المؤذن أن يؤذِّن للصلاة، فقطع علىٰ الإمام خطبته!

لَعَمْري، لولا هٰذه الوقائع وأمثالها، مثل حادثة هدْم وحَرْق "مسجد ضرار" بأمر «رسول الله» صلى الله عليه وآله، لما أمكَن اليوم كتابة شيء في طريق الدفاع عن الحقِّ، أمام الباطل المبطَّن، ومواجهة الضلال المتستِّر! وكان وابل سهام التكفير والزندقة والمروق والغلُو ستتَّخذ أيَّ صوْت حقٍّ مرمىً لها، وهدفاً ومغرَماً!

فنحن في هٰذه الوقائع أمام المستوىٰ الأول والقمة في المقدَّسات الإسلامية: القرآن، الأذان، الصلاة، المسجد... كيف تراها أنقلبت إلىٰ حربة تطعن الإسلام، وأداة بِيَدِ مَن يكيد له وللمسلمين؟!

ماذا عن الذين يناوِرُون عليها اليوم ويرفعونها على أسِنَّة دعوتهم وحركتهم وطروحاتهم؟! هل يسمح البحث العلميُّ والدراسة الموضوعية أن نتناول ما وراء هذه الشعارات المقدَّسة، ونضعها على بساط التدقيق والرقابة، ودكَّة القضاء والمحاسبة؟

ماذا لو تبيَّن أنها أصواتٌ ناصِبيَّة تكرِّر صدىٰ "حسبنا كتاب الله"! وأنها تستمدُّ وتشرب من تلك العين الآسنة الكدرة، وتتفرَّع من النبعة الشيطانية التي نبت منها أُولئك المنافقون؟! إنَّ طرح الأنصراف إلىٰ العبادة، والأنشغال بأداء الواجبات الشرعيَّة، والنهوض بـ "الدعوة" والنشاط السياسي، مقابل المطالبة بتأسيس وتدعيم "الولاء" وترسيخ العلاقة بـ «المهدي» عليه السلام... هو من قبيل نقل البندقية من كتف إلىٰ أُخرىٰ! مجرَّد مناورة وصُورة مقبولة يمكن إخفاء الحقيقة وراءها، فالجرائم الكبرىٰ بحاجة إلىٰ غطاء كبير وذريعة مناسبة.

ولكن هل تغيِّر هذه المناورة الفجَّة من حقيقة حربهم لـ «صاحب العصر وإمام الزمان» عليه السلام وسعيهم الدؤوب لتغييبه؟ وإن لم تكن حرباً ومؤامرة، فما هي إلّا سيادة الجهل، وأنحطاط العلم وتردِّي الوعي، الذي يجد في القلوب المريضة مرتعاً خصباً. وفي الأُسطورة الصينية: "كانت الضفادع في قعر البئر تدَّعي أن حجم السماء لا يزيد علىٰ القرص الذي ينفتح عليها من رأس البئر"...

وفي "طلاسم" «إيليا أبي ماضي»:

قيل لي أدرىٰ الناس بالأسرار سكّانُ الصوامع
قلتُ إن صَحَّ الذي قالوا فإنَّ السرَّ شائع
عجباً كيف ترىٰ الشمسَ عيونٌ في البراقع
والتي لم تتبرقع لا تراها؟... لست أدري

وأنا لست أدري أيضاً، كيف يسقط أدعياء الٱنفتاح والتنوير، الذين ثاروا علىٰ "الجمود" و"الرجعية"، وخلعوا رِداء "الموروثات البالية" عنهم! ويدَّعون لأنفسهم الشاعريَّة والذوق والحسَّ الفنِّي... كيف يضيق أُفقهم إلىٰ هـٰذا الحدِّ، لتخفىٰ عليهم هـٰذه الأنوار التي ملأت الخافقين؟! فيعجزون عن إدراك سرِّ الكون، وقُطب رحىٰ الوجود الذي تدور الشريعة، وتحلِّقُ العبادات والمعاملات، وكلُّ ما في هـٰذه الدنيا من مخلوقات الله، في فلكه، وتحوم حول وُجُوده الشريف؟!

إنَّ أشدَّ ما يحيِّرني في هـٰذه الفرقة الضالة (الجديدة)، هو الأرضية التي بين "الٱنفتاح"، و"البراغماتية"، و"التحرُّر" المفرط الذي يستلُّ خيوطه من الغرب وتسيُّبه (الذي يسمىٰ بالمرونة والليونة)، وبين صلافة "الوهابية" وجلافتها، والمشهود غير المنكر من جمودها وتحجُّرها، وغلظتها وشدَّتها وتطرُّفها! (١)

كيف جمعُوا هـٰذا بذاك، وأقحمُوا المزيج ودَسُّوه في هـٰذا القالب النشاز؟ كيف حشروا "الدين" في هـٰذا التلفيق المتنافر؟ كيف ٱجتمع هـٰذان النقيضان الفكريان والعمَليان في أُطروحة واحدة؟ وقد أجابني بعض العلماء بأنه المنهج الحسِّيُّ، وضيق الأُفق، والفكر الماديُّ، فهو القاسم المشترك الذي يلتقي فيه وعليه الطرفان، ذاك أخذها من قسوة الصحراء وهي تلسعه بسياط الفقر وتُربِّيه علىٰ الإغارة والسلب، وهـٰذا أتته من الٱلتقاطيَّة والجهل... ولكني ما زلت في حيرتي!

---

(١) من غريب الجمع والتلفيق هـٰذا، تحرُّرٌ وتسيُّبٌ يناهز الإباحية، يلغي ولاية الرجل علىٰ زوجته ويحصر ذلك بحقِّه في الٱستمتاع الجنسي، فإذا قضىٰ وَطَره منها خرجت دون إذنه! ويفتي للنساء بجواز ممارسة العادة السرية! ولـٰكنه ـ في المقابل ـ يوافق الوهابية ويحرِّم التدخين!

والحق، أنَّ هـٰذا هو ما يدعـوني إلىٰ ترجيح كفَّـة العمد وفـرضيَّة المؤامرة في هـٰذا الطرح... ولا سيَّما عندما نلاحظ مدىٰ الإصرار والمكابرة (التي تسـمىٰ في قامـوسهم ويُطلق عليها "صدم الواقع ")، في نشر فكرهم والترويج لآرائهم، وما تسبَّبوه من فتنة بين المؤمنين!

وهـٰذا "إمامهم" يصرح: "يجب طرح القضايا المسكوت عنها، إنني أُؤمن بدور الصدمة... فالقضية الغير تقليدية تحتاج إلىٰ معالجات غير تقليدية. لا سيَّما إذا ما تواترت الصدمات، وهـٰذا ضروريٌّ جداً، لقد عملت ولا أزال علىٰ هدم الحواجز الموجودة في الواقع، إنني أزعم لنفسي ٱمتلاك الشجاعة... "![1]

---

(١) تبنىٰ «فضل الله» فكرة "صدم الواقع" هـٰذه وٱرتكز عليها في إثاراته وفتنه وأفاعيله وهجماته المتلاحقه علىٰ البنية العقائدية لمذهب الإمامية، وطرَحها كثيراً، كما في النصِّ المنقول أعلاه، وفي غيره كقوله لِوَفد من منظمة "علماء جبل عامل" برئاسة «الشيخ دعموش» في ١٦/ ٤/ ٢٠٠٩:

"يجب أن يتركز عمل العلماء في نطاق تأصيل العقيدة ومواجهة التشويهات التي باتَ البعض يتعامل معها كمقدسات وثوابت غير قابلة للمنافسة وعليهم أن لا يتراجعوا لأن الواقع يحتاج إلىٰ صدمات متلاحقة".

وقوله: "إن علينا أن نكفَّ عن أن ننحني بعقولنا لأية جهة من الجهات مهما كبرت، أو أن نسلِّم تسليماً مُطلقاً لأية جهة قيادية سياسية كانت أم مرجعية، بل أن نعمل لأكتشاف نقاط الضعف في القيادات، ولا نكتفي عند التحديق في نقاط القوَّة الكامنة في شخصيَّاتهم، وعلينا أن نعرف أنه لا مقدَّس أمام النقد، فيمكن أن ننقد أعلىٰ المرجعيات الدينية وأكبر المرجعيات الثقافية... لقد خلَق الله الإنسان حُرّاً في عقله وعلمه وحركته، وعلينا أن لا نستعبد عقولنا وأنفسنا لأحد ولا نسترِقَّها أمام أحد، وعلىٰ القيادات أن تتقبل كلَّ نقد علمي بنَّاء ولا تهرب من مسؤوليتها أمامه... وعلينا أن نعرف أن الله وَحْدَه هو المعبود وأنه سيُحاسبنا علىٰ تقصيرنا في مسألة الحرية".

←

←

وقال أمام وَفد من "المركز الإسلامي الثقافي" و"المكتبة العامة في جمعية المبرَّات الخيرية": إننا نحتاج في القراءة أن نستجمع كلَّ ما أنطلق به المبدعون، لا لِنتجمَّد أمام إبداعاتهم، ولكن لنحاول أن نرتقي في إبداع جديد، وأن ننفتح على ما أنطلق به المفكرون، لا لِنتجمَّد أمام ما أنتجوه ولكن لِنصنع آفاقاً ثقافية جديدة، إنَّ علينا أن نعدَّ العدَّة ـ بحسب إمكاناتنا ـ لبناء أجيال جديدة تفكِّر بطريقة علمية ونقدية وتضيف أشياء جديدة إلى تراث الآخرين وتنفتح من خلال ذلك على المستقبل، علينا ألّا نقرأ القراءة الساذجة التي تستظهر ما تقرأ، بل القراءة العلمية التي تحاول أن تبدع. إنَّ هناك من المفكِّرين مَن يقول أن المسلمين قد توقَّفوا عن إنتاج الفكر بعد «ابن رشد» و«ابن خلدون»، ونحن نقول إنَّ حركة الفِكر الإسلامي لا تتوقَّف، وقد نجد عمقاً في تجربة معينة وسَطْحاً في تجارب أُخرى، ولكن الأُمة لم تكُف عن إنتاج المفكِّرين كـ «صدرالدين الشيرازي»، وكـ «السيد محمد باقر الصدر»، وغيرهم في «مصر» و«إيران» ومواقع أُخرى، ولكن المسألة أن تجارب الفكر تختلف...".

وأضاف: "إننا كُنّا الأُمة التي قرأت في كُتب الأُمم الأُخرى وعملت على أن تثري الأُمم الأُخرى من خلال قراءتها، ولذلك فإنَّ التحدي الذي ينتظرنا يكمن في قرارنا بأن نصِرَّ على الأنضمام إلى قافلة المبدعين بين الأُمم، لأننا إذا لم نسلك هذا السبيل فسوف نواصِل السير أنحداراً في متاهات التاريخ وغياهب المستقبل". انظر: العدد ١٠٩٧٩ من جريدة السفير اللبنانية ٢١ نيسان ٢٠٠٨.

وفي كتابه (من وحي القرآن) في تفسير الآيتين ١١٠و١١١ من "سورة المائدة"، يزعم أن معجزة نبينا إنما كانت من أجل أن تمثل النبوة قوَّة ثقافية غير عادية "تصدم" الواقع! وفي بداية تفسيره "سورة طه" يفخر ويباهي أن حركته القويَّة صدَمَت الواقع الطاغي! بل تراه يعبِّر عن حركة «سيد الشهداء» عليه السلام قائلاً: "ولذلك كان الحسين يشعر بالحاجة إلى صدم الواقع فأستعد للمأساة".

لكن الغريب بعد كلِّ هذا السعي والبذل في سبيل "التنظير" لِفكرته ومحاولة "الأستدلال" لها وإثباتها، بعد هذا كلّه، تراه يناقض نفسه في موضع آخر ويقول: "الغوغائية (هي التي) تصدم الواقع وليس الفكر"! وذلك في الذكرى الخامسة لأستشهاد «السيد الصدر» رحمه الله! (انظر موقعه: "بيِّنات"). ■

تُرىٰ، هل يتحقَّق ما يريده الله و«رسوله» و«الحجَّة» عليهما السلام، وما يريده الإسلام مِنَّـا، بمجرَّد أداء واجباتنا الشرعية وتكاليفنا في إطار الفقه وحُدُوده، كما يزعم أرباب التغييب؟ ويقصدون بالفقه، هٰذا الإطار المحدود المعروف لجملة من العبادات والأعمال المحصِيَّة والمعيَّنة في "الرسائل العملية"، لا المنهج التربوي والخط العقدي وقانون الحركة الذي يستوعب جميع أبعاد الحياة... فتلك يفردون لها "الفكر" ويدخلونها في مقولة "المفاهيم"، وآليتها "الدعوة"، لتبقىٰ أيديهم طلقة في مساحات غير محدَّدة، وأُطر هُلامية قابلة للتشكُّل كيفما شاؤوا!

أما إذا جاء خصومهم وأراد غيرهم الحركة في آفاق الولاء والتحليق في سماء المعرفة والتربية والتجوال في ربوع الفكر الأصيل والمفاهيم الحقَّة... فإن ذلك يصبح ـ فجأة ـ من ضروب الترف، وعلماً لا يُضَرُّ مَن تركه، ولا ينتفع من أخذه!

هل أن ما يُطرح وَراء الفقه (حسب فهمهم للفقه)، من ممارسات تصبُّ في إيجاد روحيَّة معيَّنة، وسلوكية متميِّزة، وحالة خاصَّة من الأرتباط بـ «الإمام المنتظر» عليه السلام قوامها التفاعل المستمر مع وُجُوده الشريف، والسعي الحثيث للتواصل ـ بأيِّ نحْوٍ ـ معه، والمعاناة الممتدَّة من غيبته، والأستشعار الدائم بالفراغ والفجوة والنقص الذي يكتنف الحياة ويستحوذ علىٰ جميع مظاهرها... هو ضربٌ من الغيب المرفوض، واللاهوتية التي لم نطالَب بها ولم نؤمر؟

وإنه ليس للأستغراق فيها من ثمرة إلّا مزيد من الخياليَّة التي ستُضعِف، بل ستجمِّد أيَّ نشاط عمَليٍّ يمكن للمؤمن أن يؤديه، بذريعة غيبة «الإمام» وأنقطاعه، وضرورة تأخير وتعطيل الحركة بأنتظار ظهوره ونهوضه المباشر بدوره؟!

أحقاً أنها أحلام ستخلِّف "طوباوية"، وتولِّد عُقَداً نفسيَّة لسنا بحاجة لمزيد منها! هل نغالي إذا ما طالبنا بهذه الحالة، ونكون قد فرضنا غير المفروض، ونادينا بأكثر مما هو مطلوب، فنغضب لله أكثر مما غضب لنفسه ونكون مَلِكِيين أكثر من الملك؟...

ولنرجع إلىٰ المقولة الأساسيَّة: إنَّ العمل بالفقه يؤمِّن الصِلَة ويحقِّق الأرتباط بين المؤمن و«إمامه»، ما هي العلاقة بين مسألة الألتزام بالأحكام الشرعية والعمل بها، وبين مسألة الأرتباط بـ «المهدي» عليه السلام والأئتمام به ومعايشته كقضية أُولىٰ في حياتنا وعصرنا الحاضر؟

تُرىٰ ما هو الفرق بين إمام زماننا وبقية «الأئمة» عليهم السلام، بلحاظ الدور والأرتباط، لا المقام والمنزلة؟ أليس العمل بالفقه يحقِّق حضوراً للمعصومين جميعاً؟ وللقرآن الكريم، ولله سبحانه وتعالىٰ؟ إذن هل من خصوصيَّة في البين لإمام زماننا «الحجَّة بن الحسن» عليهما السلام؟ هل ستختلف النتيجة، مع هذا الفرض، بين كونه عليه السلام وُلد في الخامس عشر من شعبان سنة ٢٥٥ من الهجرة، وما يزال حيّاً، وبين مقولة إخواننا السنيين إنه لم يُولَد بعد؟ وإنه شخص آخر ليس «ابن الحسن»، فهو عندهم يدعى «محمد بن عبدالله»؟ [1] أو مقولة المسيحيين إن المخلِّص هو «عيسىٰ بن مريم» عليه السلام...

(١) من بين مئات الأحاديث التي تتحدَّث عن «المهدي»، تراه لا يستشهد إلّا بالمنسوب إلىٰ «رسول الله» : "لا تنقضي الأيام والليالي حتىٰ يبعث الله رجلاً من أهل بيتي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجَوْراً" ... انظر: ‹الندوة› (ج ٢ ص ٢٨٢). مُصِرّاً علىٰ اختيار هذا النصّ الذي يتضمَّن "اسم أبيه اسم أبي"! ولا يقف الأمر علىٰ المحاضرة التي قد يحكمها الارتجال، بل تراه يسجِّل ذلك حين التدوين ويخرِّج
←

هل من "ثمرة عمَلِيَّة" ونتيجة مختلفة بين الحالتين أو الثلاث، علىٰ صعيد حركة المؤمن الروحية والعمَلِية، وما يعايشه في مسيرته الإيمانية علىٰ ٱمتداد حياته وإلىٰ حين وفاته؟

هل ستختلف النتيجة، مع الفرض السابق الذي ينطلق منه القوم في التعامل مع القضية، بين كونه عليه السلام غائباً مستتراً عن الأنظار، وبين ظهوره ومباشرته العلَنِيَّة لِدَوْره ومقامه، كما فعل آباؤه صلوات الله عليهم أجمعين؟ هل من نتيجة مباشرة تتعلَّق بغيبته؟ هل من تكليف خاص يتوجَّه إلينا تجاهه نتيجة هٰذه الغيبة؟ أم هو "مجرَّد غيب لا سبيل إليه، فلا ننشغل بما لا طائل فيه"!

←

مصدر الحديث في الكتاب (الندوة)، مما يثبت القصد ويؤكِّد العمد. ولم يُشِر، ولو إشارة، إلىٰ المعالجات والتأويلات التي طرحها الشيعة حول النصِّ بما يصحِّحُ عقيدتهم في أنه ـ عليه السلام ـ وُلِدَ، وأنه حيٌّ غائب.

وقد قيل في توجيهه وجمعه أو مقابلته مع بقية الأحاديث وُجُوه:

الأول: أنَّ الشيعة لا يصحِّحون الحديث.

الثاني: أنه من مجعولات بعض أتباع «محمد بن عبدالله بن الحسن».

الثالث: أنَّ الجمهور نقلوا أن «زائدة» كان يزيد في الأحاديث، فهو من زيادته، ليكون جمعاً بين الأقوال والروايات. وقد نقل في (كشف الغمة) (٢/ ٤٧٦) بياناً جيداً في تأويل الرواية من بيان «الكنجي الشافعي».

الرابع: ٱحتمال أن يكون "وٱسم أبيه ٱسم ٱبني"، أي «الحسن» عليه السلام، فإن تعبيره صلى الله عليه وآله عنه بٱبني، وعنه وعن أخيه «الحسين» بٱبنيَّ، في نهاية الكثرة في أخبار الفريقين. فوَهِم فيه الراوي فصحَّف ٱبني بـ"أبي".

الخامس: أن «عبدالله» من أسماء «أميرالمؤمنين» بقوله: "أنا عبدالله، وأخو رسول الله، والصدِّيقُ الأكبر، لا يقولها بعدي إلّا كاذب مُفترٍ".

وهناك وُجُوه أُخرىٰ، لم يذكر في (الندوة) واحداً منها، بل لم يُشِر إلىٰ أنَّه يوافق رأي العامة ويخالف الشيعة، إنما ألقاه، علىٰ طريقته، دَسّاً وتزييفاً... فتأمَّل. ■

بل، هل من فرق ـ في تلك الحالة ـ بين وُجُوده وعدم وُجُوده؟!

ماذا سيتغيَّر في الدين ويضاف في الشريعة، أو يتبدَّلُ في الحياة إذا لم يكن «الإمام المهدي» عليه السلام موجوداً في زماننا الحاضر؟ وكان الصحيح هو القول بأنه سيُولد في آخر الزمان (حين اقتراب ظهوره)؟

مما لا شك فيه أن أرباب التغييب، من أصغر عنصر في هذا الحزب إلىٰ أكبر رأس فيه، أقلُّ وأعجز من أن يجيبوا عن هذه التساؤلات، اللهم إلّا أن يخرجوا من مذهبنا، ويدينوا بغير ديننا، ويوالوا غير وَلينا، ويكشفوا عن حقيقة معتقدهم ويعلنوها صريحة!

نعم، قد يصحُّ أن يُطرح ما ينادي به القوم ويطالبون في جواب: ما هو دور القرآن الكريم في حياتنا؟ وما هي علاقتنا بـ «رسول الله»، أو بالإمامين «الصادق» و«الباقر» صلوات الله عليهم أجمعين؟

فالأحكام الشرعية يتمُّ استنباطها من القرآن والسنة، ويمكننا أن ندَّعي شيئاً من "الوصل"، ولو غير المباشر، من خلال حضور "الرسالة العملية" في حياتنا ودورها في حركتنا.

ولكن كيف يكون العمل بالأحكام والالتزام الشرعي نوعاً من الصِلَة والارتباط الخاص والمطلوب بـ «المهدي المنتظر» عليه السلام، وهو لم يقع في طريق الاستنباط إلّا في النادر اليسير من الأحكام؟ فجلُّ ما بأيدينا اليوم من أحكام فقهية نتعبَّد بها، يرجع الفقهاء في استنباطها إلىٰ «الصادقَيْن» عليهما السلام بالدرجة الأُولىٰ (بنسبة تقارب ٧٠ ـ ٨٠٪)، ثم بقية «الأئمة» عليهم السلام بنِسَبٍ ودرجاتٍ متفاوتة، تتضاءل عند الوصول للإمام «الجواد» فـ «الهادي» ثم «العسكري» عليهم السلام، لتنحصر في «الحجَّة» عليه السلام ببعض التواقيع الصادرة من الناحية المقدَّسة، أكثرها في فرع فقهي واحد (هو أحكام الفقاع)...

إذن على صعيد العبادة والالتزام الشرعي، ينحصر الارتباط ويضيق حتى يخال المرء أنه تلاشى وانعدم.

فأين موقع «الحجَّة» في حياتنا، وأين حضوره، وأين دوره؟



❖ مواقع اللقاء ومحطّات التزوُّد والاّتصال

يزخر التراث الشيعيُّ المرتكز على القرآن والسنة المعصومة، وتفيض الأدبيات الأصيلة للحركة الشيعية، بكمٍّ هائل من الأعمال العبادية والممارسات السلوكية التربوية، والمفاهيم التي تجعل المؤمن يدور في الفلك الصحيح، وتسيِّره في أجواء لا ينفصل بها عن إمام زمانه. ويبلغ الأمر حدّاً يورث العجبَ والحيرة عندما نجد أن المنظومة التي حثَّ الشارع المقدَّس وندَبَ إليها للاُرتباط بـ «المولىٰ» عليه السلام، تشغل جميع الأوقات والأماكن والحالات التي يمكن أن يكون عليها المؤمن، بحيث تستوعب كلَّ حياته طولاً وعرضاً...!

ومع أن تناول هٰذه المواقع والمحطات قد لا يكون من صميم موضوع الدراسة وما نحن بصدده، ولكني رأيت أن أسردها، مجرَّد سرد، حتىٰ ينتزع القارئ الكريم معي بعد ذلك ما أردتُ اُنتزاعه، ويصل معي إلىٰ ما أردتُ الوصول إليه، مما يمسُّ بحثنا مباشرة.

ولا يسعني وأنا في بداية عرض هٰذا المسرد إلّا أن أترحم علىٰ عالم جليل وآية عظمىٰ، هو «السيد محمد تقي الموسوي الأصفهاني» قدس سره (١٣٠١ـ ١٣٤٨هـ) صاحب كتاب ‹مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم›، وهو سِفر جليل تناول فيه "المواقع والمحطات"، وقد اُستخرجها من القرآن والسنة وعالجها معالجات علمية رائعة، عدَّدَ مواقع الوصل ومحطات اللقاء بـ «الحجَّة» عليه السلام في إطار ثمرات وفوائد الدعاء له عليه السلام. وعلينا أن نعيَ ونحن نقرأ كلَّ عنوان، ما يقف خلفه من روايات وأدلَّة عِلمِية محكمة ومتينة، فهي مطالب ساق علماؤنا الحجَج عليها وأقاموا البراهين، بل إنَّ كلَّ عنوان من هٰذه منتزعٌ من صُلْب المتون الروائية ومأخوذٌ عن النصوص المعصومة مباشرة...

عدَّ - قدّس سرّه - واحداً وأربعين "ميقاتاً" و"محطة زمانية" تؤمِّن الاتصال، وتحقِّق الارتباط بـ «إمام العصر والزمان» عليه السلام من خلال الدعاء له، فذكر الدعاء له:

بعد كلِّ فريضة، بعد خصوص صلاة الظهر، بعد صلاة العصر، بعد صلاة الصبح، بعد كلِّ ركعتين من صلاة الليل، في قنوت الصلوات ويشهد بذلك قنوتات عن «الأئمة» عليهم السلام، في حال السجود للخالق المعبود، في سجدة الشكر، في كلِّ صباح ومساء، في الساعة الأخيرة من كلِّ يوم، يوم الخميس، ليلة الجمعة، يوم الجمعة، في جميع الساعات والأحوال، يوم النيروز، يوم عرفة، يوم الفطر، يوم الأضحىٰ، يوم دَحْوِ الأرض، يوم عاشوراء، ليلة النصف من شعبان، يوم النصف من شعبان، جميع شهر رمضان ولا سيَّما لياليه، الليلة السادسة من شهر رمضان، اليوم الثامن من شهر رمضان، الليلة الثانية عشرة من شهر رمضان، اليوم الثالث عشر من شهر رمضان، اليوم الثامن عشر والليلة التاسعة عشر منه، اليوم الحادي والعشرون منه، بعد ذكر مصيبة «سيِّد الشهداء» عليه السلام، بعد زيارته، عند البكاء من خشية الله تعالىٰ، عند تجدُّد كلِّ نعمة وزوال كلِّ محنة، عند عروض الهمِّ والغمِّ، في الشدائد والبليَّات، بعد صلاة التسبيح (المعروفة بصلاة «جعفر الطيار» عليه السلام)، قبل الدعاء لنفسك وأهلك، يوم الغدير، في مُطلَق الأوقات الشريفة والليالي والأيام المباركة، في مجالس المخالفين وغاصبي حقوق الأئمة الطاهرين عليهم السلام، في أربعين يوماً متَّصِلة، في شهر المحرَّم وكلِّ يوم وقَعَ فيه ظُلْمٌ علىٰ «الأئمة» عليهم السلام.

ثم ذكر "المواقع" و"المحطات المكانية" التي ندَبَ الشارعُ المقدَّس إلىٰ الدعاء لـ «الحجَّة» عليه السلام فيها، وذكْرِه عند حضورها، فذكَرَ:

المسجد الحرام، عرفات، في محلِّ الوقوف، سرداب الغيبة في «سامراء»، المقامات المنسوبة إليه عليه السلام ومَشاهِدَه ومواقفه، حرم مولانا الشهيد المظلوم «أبي عبدالله» عليه السلام، حرم مولانا «أبي الحسن الرِّضا» عليه السلام، حرم «الإمامين العسكريينْ» عليهما السلام، مَشهَد كلِّ واحد من «الأئمة المعصومين» عليهم السلام.

ثم راح صاحب (مكيال المكارم) قدس سره وأخذ في تصنيف حالات الٱرتباط بـ «المولىٰ»، وذكر "محطات اللقاء ومواقع الٱتصال"، حتىٰ أحصىٰ ثمانين موقعاً، نذكر منها:

تحصيل معرفته وصِفاته، وآدابه، وخصائصه، وعلائم ظهوره،

رعاية الأدب بالنسبة إلىٰ ذكره، وأنّه لا يُسمَّى بٱسمه الخاص،

محبَّته عليه السلام بالخصوص،

تحبيبه عليه السلام إلىٰ الناس،

ٱنتظار فرَجِه وظهوره،

إظهار الشوق إلىٰ لقائه،

ذِكْر فضائله ومناقبه،

الحزن علىٰ فراقه،

الحضور في مجالس ذِكْر فضائله،

إقامة المجالس التي يُذْكَر فيها،

إنشاء الشعر وإنشاده في فضائله،

القيام عند ذِكر ٱسمه وألقابه،

البكاء والإبكاء والتباكي علىٰ فراقه،

طلب معرفته عليه السلام من الله عزَّ وجلَّ،
المداومة بدُعاء "اللهم عرِّفني نفسك..." الذي رواه «الكليني» قدس سره، والمواظبة على "دعاء الغريق": "يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلِّب القلوب..."، والتزام الدعاء الذي ذكره «ابن طاووس» قدس سره،
معرفة علامات ظهوره ووُقُوع بعضها،
التصدُّق نيابة عنه،
التصدُّق بقصدِ سلامته،
الحجُّ نيابة عنه،
الإحجاج عنه،
طواف بيت الله الحرام نيابة عنه،
زيارة مشاهد «رسول الله» صلى الله عليه وآله و«الأئمة المعصومين» عليهم السلام نيابة عنه،
بعث النائب لِيَزُور عنه، (وقد ذكر ـ بمناسبة العناوين السابقة ـ دليل جواز وصِحَّة النيابة عن الحيِّ في العبادات).
السعي في خدمته بما تيسَّر،
الاهتمام في نُصرته،
العزم القلبي على نصرته في زمان ظهوره،
تجديد البيعة له بعد كلٍّ من الفرائض اليومية،
صِلَته عليه السلام بالمال حضوراً وغياباً، بصرفه في ما يرضاه،

صِلة الصالحين من شيعته ومواليه بالمال،
إدخال السرور على أهل الإيمان بما يوجب مسرّته عليه السلام،
زيارته بالتوجُّه إليه والتسليم عليه في كلِّ مكان وزمان،
زيارة المؤمنين الصالحين (فهم أولياؤه) بقصد ثواب زيارته،
الصلاة عليه،
إهداء ثواب الصلاة عليه،
إهداء صلاة إلى «الإمام» عليه السلام،
صلاة الهدية بنحْوٍ خاص في وقت خاص،
إهداء (تلاوة) القرآن إليه،
التوسُّل والاستشفاع به إلى الله عزَّ وجلَّ،
الاستغاثة به، والتوجُّه إليه عليه السلام، وعرض الحاجة عليه،
دعوة الناس إليه ودلالتهم عليه،
مراقبة حقوقه والمواظبة على أدائها،
خشوع القلب لذِكْرِه،
إظهار العالِم علمَهُ بظهور البدَع،
التقيَّة عن الأشرار وكتمان الأسرار عن الأغيار،
التواصي بالصبر في زمن غيبته،
الاحتراز والتجافي عن مجالس الاستهزاء به،
مُصانعة أهل الجور والباطل،

الاْختفاء والتجافي عن الاْشتهار،
تهذيب النفس لمن يريد أن يكون من أصحابه،
الاْتفاق والاْجتماع علىٰ نصرته،
الاْتفاق علىٰ التوبة الواقعية (النصوح) وردِّ الحقوق إلىٰ أصحابها،
مُدَاوَمة ذكْره والعمل بآدابه،
أن تطلب من الله دوام ذكرِك إيَّاه عليه السلام،
خشوعك ببدَنِك له،
أن تقصد رِضَاه،
تعظيم مَن يتقرَّب به وينتسب إليه بقرابة جسمانية أو روحانية،
تعظيم مواقِفه ومَشاهِدِه،
الدعاء للفوز بلقائه مُقترِناً بالعافية،
الاْقتداء به وترك الإعجاب بما في أعدائه،
حفظ اللسان وفَضْلِ السكوت والصمت،
أداء صلاة «الحجة القائم» وكيفيتها في "مسجد جمكران" في «قم»،
البكاء علىٰ «سيِّد الشهداء» صِلَة بـ «الإمام»،
زيارة قبر «سيِّد الشهداء» صِلَة بـ «الإمام»،
إكثار اللعن علىٰ «بني أُمية» صِلَة بـ «الإمام»،
الاْهتمام في أداء حقوق الإخوان المؤمنين نُصْرةً له عليه السلام،
إعداد السلاح والمرابطة...

ونحن نحيلُ القارئ إلىٰ هٰذا الكتاب القيِّم ليتعرَّف علىٰ تفاصيل كلِّ عنوان من هٰذه، سواء من حيث ما يقف خلفها من أدلَّة تفصيليَّة، أو ما يشرح كيفية العمل بها، عسىٰ أن نوفَّق جميعاً لها.

أمّا ماذا وراء هٰذا المسرد العجيب من العناوين؟

إننا أمام أعمال ومَهام وطقوس، وشعائر وحالات روحية، ورياضات نفسية، تستوعب كلَّ حياتنا زماناً ومكاناً، ولا يكاد مَن يُريد الٱلتزام بها أن يجد فُرجَة من وَقت، أو فُسحَة من أرض، يخلو فيها مع غير «إمام زمانه» عليه السلام!

ولعلَّ بعض عبارات "زيارة آل ياسين":

"السلامُ عليكَ حين تقوم... حين تقعد، حين تقرأُ وتبيِّن، حين تُصَلِّي وتقْنُت، حين تركعُ وتسجُد، حين تهلِّل وتكبِّر، حين تحمَدُ وتستغفر، حين تُصبحُ وتمسي، السلامُ عليكَ في الليل إذا يغشىٰ والنهار إذا تجلّى..."

تريد توجيهنا إلىٰ حالة الٱستغراق وعَدَم الٱنفصال والفراق، وشُمُول العلاقة والٱرتباط به عليه السلام والتسليم عليه لجميع الحالات والأوقات، وبالتالي ٱستيعابها كلَّ حياة المؤمن...

ونحن نرىٰ ضمن هٰذه العناوين عمومات يندب إليها الشرع مُطلقاً، مثل زيارة المؤمن وبِرِّه وصِلَته بالمال، والتواصي بالصبر وتهذيب النفس... إلىٰ آخر ذلك من أُمور، ولٰكنها مطروحة هنا من خلال «الإمام الحجَّة» عليه السلام، وكأنَّ هٰذا المنهج يريد للدين بتمامه وكماله، بفكره وحركته، بشعائره وأعماله، بكلِّ شيء فيه، أن يندكَّ ـ في المحصِّلة ـ بـ «إمام الزمان» عليه السلام وبالٱرتباط به.

وبٱستثناء "دعاة التغييب" وخطِّه، وتيَّارهم المنحرف، و "إمامهم" الضال المضل...

لا يوجد في علماء الطائفة، من أعلىٰ قمة الهرم العلمي (مراجع التقليد العظام) فما دون، المتقدِّم منهم والمتأخر، لا يوجد مَن يتوقَّف أو يتحفَّظ علىٰ هٰذا المنهج والطرح، الذي يجعل الحركة الدينية والنشاط الإيماني والسلوك الشرعي للمؤمن يمضي في رحاب «إمام الزمان» عليه السلام، وحَوْماً في فلَكِه، وسَبْحاً في فضائه، بل يوجِبُون ذلك ويرونه صميم الدين وجوهَر الحق.



❖ نظرة في "محطة" ... "الرجعة"

تعالوا لنتدبَّر في عقيدة "الرجعة"، هٰذه الفكرة التي تُعدُّ من أُصول المذهب وثوابته، المقطوع في صحَّتها للقطع بصحَّة الأخبار الكثيرة جدّاً، إن لم نقل المتواترة التي جاءت فيها [1]... إنها واحدة من أكبر وأعظم محطَّات ومواقع الأرتباط بـ «الحجَّة بن الحسن المهدي» عليه السلام.

تُرىٰ، لماذا تطرح المدرسة الشيعية هٰذه الفكرة، ولماذا نادىٰ «أئمة الهدىٰ» عليهم السلام بالرجعة وزَرَعُوها ورَسَّخُوها في عقيدة وتفكير شيعتهم، وأكَّدوا عليها إلىٰ هٰذه الدرجة؟ لماذا بثُّوها بشكْل أدخلها في بُنْيَةِ التشيُّع وصمِيمه، حتىٰ صارت "ثقافة" شيعيَّة يُشار إليها، فإذا ٱختلف أرباب المذاهب والفِرَق، وتنازع الباحثون في العقائد والآراء الكلامية، وتردَّد الرجاليُّون وتفرَّقوا في تحديد مذهب رجل، ٱستشهدوا علىٰ تشيُّعه بأنه كان يقول بالرجعة.

ولسنا بِصدَدِ بحثٍ يُفلْسِفُ ويكشف الوَجه والعلَّة التامَّة لفكرة الرجعة، بل نحن بصدد عرض إحدىٰ الفوائد العظيمة من ورائها...

إنَّ "الأنتظار" و"المهدوية" إذا ما طُرحت كمجرَّد فكرة للخلاص، ونظريَّة تصوِّر في الأذهان الأمل الموعود، وتزرع في القلوب الأُمنية المنشودة التي ستأتي في آخر الزمان ونهاية الدنيا... لن تعدو أن توضع ضمن عشرات ومئات غيرها من المتبَنَّيَات والأفكار والآمال التي يحلم بها الإنسان ويتطلَّعُ إليها في حياته، علىٰ رفوف الذاكرة، وفي خزانة المحفوظات والمقتنيات الجامدة.

---

(١) الوصف للعلَّامة السيد «عبدالله شبَّر»، ذكرَه في كتابه ‹حقِّ اليقين في معرفة أُصول الدين› (ج٢ ص٣).

تصوَّروا الفرق ـ حركيّاً ـ بين هذه الحالة، حين يعيش المرءُ مع نظرية وفكرة مجرَّدة، ليست لها أبعاد عمَليَّة، ولا قنَوات مباشرة ترتبط بحياته ومَعيشته، ولا حتىٰ آفاق تستشرف غداً قريباً موصولاً مُدركاً، وبين أن ينطلق من الحالة المقابلة التي يكون «المهديُّ» عليه السلام فيها شخصاً حاضراً في يوميَّات الحياة (لا مجرَّد "فكرة" كما يهمسون!).

وعقيدة نابضة بالحياة، مُفعمة بالاْتصال والاْرتباط اليومي والدائم بها، حتىٰ يبلغ هذا الاْرتباط والتواصل حدَّ "قهر الموت"! والنشور والخروج من القبر، والعودة إلىٰ عالم الدنيا ثانية، للمشاركة في تحقيق الأمل وبلوغ الرجاء الذي عاش له حياته!

هل هناك فكرة أُخرىٰ في عالم المعرفة البشرية، سواء لدىٰ أرباب الأديان أو في المدارس والفلسفات أو في المناهج السياسيَّة، تتمتَّع بهذا الزخم والطاقة الحياتية، والعطاء الحركيِّ الذي يجعل أربابها والمؤمنين بها ينهضون من موتتِهم، قبل الحشر لِيَوْم القيامة، وينهضون من رقدَتهم ليَعُودوا إلىٰ هذه الحياة الدنيا من جديد...!؟

إنها كنزٌ وثروة حركيَّة ليس لها نظير في أية مدرسة أُخرىٰ، حتىٰ القائلين بالتقمُّص أو التناسخ، لا يتمتعون بهذه الفكرة والميزة، إذ تذهب عقيدتهم إلىٰ أنَّ الروح ستعود في جسم آخر، وتعيش حياة أُخرىٰ لا علاقة لها بحياتها السابقة ولا اْتصال.

تصوَّروا الفرق والأثر والثمرة التي سنجنيها من هذا الموقع الكبير والفكرة العظيمة... «الرجعة». إنها دعوة لإقامة علاقات دائمة ومستمرة، وربط حثيث بواقعةٍ سيعيشها المؤمن في حياته، فإذا لم يدركها في "الأُولىٰ"، فإنه سيعود ليعيشها وسيجني ثمارها وينعم بخيرها في حياة "ثانية" في "القيامة الصغرىٰ" قبل "الكبرىٰ"...

واقعة تشكّل الأمل والغاية وتحقيق الرجاء في الوعد الإلهي بخلافة الإنسان ووراثته الأرض، واقِعَة تختزن الانعكاس التطبيقي للحوار العظيم بين الملائكة وربِّها عزَّ وجلَّ عند بدء الخليقة، حين قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة).

فلا يعود التفاعل والتناغم مع العبادات والأعمال المرجأ أمرها إلى الآخرة ويوم الحساب، وينتظر المرء مردودها ونتيجتها هناك، في ضرب من الغيبية (والدفع بالآجل، حسب التعبير التجاري) لا يمكن إلّا للأوحدي أن يتفاعل معها التفاعل المطلوب... لا يعود حاله مع الاعتقاد بالرجعة مثلما كان دونها. فالملاحظ أن الخاشعين هم ثُلَّة قليلة من مجموع المصلين، بينما المشهود أنَّ التفاعل مع النذور الشرعية (مثلاً) في قمَّته! لأنَّ المؤمن يلمس لها مردوداً دنيوياً، ويرى لها أثراً مباشراً في حياته، فضلاً عن ثواب العبادة والأجر الذي ينتظره في الآخرة.

ولا يعني هذا أنَّ الصلاة والعبادات الأُخرى ليس لها مردودٌ مباشر على حياة الإنسان في هذه الدنيا، كلَّا، فلهذه العبادات آثارها وثمارها المباشرة وغير المباشرة على حياة مَن يقوم بها ويؤديها، ولكنها ليست محسوسة بتلك الدرجة التي تسمح لكلِّ مؤمن بإدراكها. كما لا يعني هذا التقليل من الزخم المعنوي والبُعد الغيبي للقضية المهدوية، ولكنه يعني تفعيل البعد الاجتماعي وضَخِّ الطاقة في الأجزاء الحركية من هذه القضية، فهي في جانب من واقعها قضية اجتماعية سياسية، ولهذه القضايا آليتها وتقنيتها في الحركة. إنها الصيغة التنفيذية والشكل العمَلي للإسلام بفقهه وفكْرِه، والناس والمجتمع هم مادَّة هذا التطبيق.

إنَّ عقيدة الرجعة هي خطـوة على طريق تـفعيل الساحـة ورَبْطِ الحركة بـ «المولى» ﷺ، وهي تحمل خطاب: إنك تتعامل مع قضيَّة ستجني ثمارها وتلقى مَردُودَها في هذه الدنيا قبل الآخرة، ونحن نقطع لك عهداً بـذلك، بل إذا وافـاك الأجل المحتوم، فنحن نتعهَّـد لك بإرجاعك إلى الدنيا وبثِّ الروح في جسدك (الذي لن يبلى) حتى تقوم وتلقى ما سعَيْتَ لأجله وعملتَ في سبيله حياتك كلها!

قارِنوا بين هذه الحالة والحالة الأُخرى التي ينادي بها القوم من إنكار الرجعة، والعمل على قطع أواصر الصلة بـ «المولى» ﷺ وتهميش دوْرِه ووُجُوده في حياة المؤمن وما يستبطنها من تجاهل وإنكار لأصل وُجُوده الشريف، حتى قالوا أن المهدوية فكرة وليست شخصاً.(١)

لقـد وَفَّـرَ الفكـر الشيعي ثقـافـة ومـادَّة وأدوات تسمح لأداء دور الأرتبـاط بـ «الحجَّـة» ﷺ وتفتح أمـامه الأبـواب علـى مصراعيهـا... ولـكنها الغفلة والتغييب، وما يفعل في إبعادِ المؤمنين وإشغالهم عن هذه الرحاب المباركة والآفاق العظيمة. إنها أدواتٌ وعوامل وأسبابٌ يبدو أنَّ المدرسة الشيعيَّة وفَّرتها وسَعَت لِطَرْحها حتى تؤمِّن أقصى درجات التفاعل والأرتباط والألتفاف حول «وليِّ الله الأعظم» أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، ونافذة رحمة تطِلُّ بالمؤمنين على خير عميم أختُصُّوا به وحُرِمَه الآخرون.

---

(١) هذه من آراء ومقولات "إمام التغييب"، ولكنِّي لم أتعـرَّض وأتصدَّى لها مباشرة لأنني لم أقف على دليل صريح يدينه في إثبات طرحه أن "المهدويَّة فكرة وليست شخصاً"، فأنا أعرف توجهه ونهاية ما يرمي إليه، وأقِف على غايته، لكني لم أجد في عباراته ما يحدِّد جزماً غرَضه، فهو ما زال، في هذا الأمر، يواري ويداري، ويتجنَّب ممارسة "الصدمة"، ويترك حديثه ليُحمَل على وُجوه عِدَّة، يجد في بعضها مَهرَباً يحول دون أفتضاحه!

ويمكنني تشبيه هذه المواقع (مواقع الأرتباط والأتصال بـ «الحجَّة ٱبن الحسن» عليه السلام) بمحطَّات التزوُّد بالطاقة الولائية، التي يزيح فيها المؤمن ما ٱعتراه من كدَر المادِّيَّة، ويُجلي عن نفسه شوائب الأنشغال بالحياة، ويتنبَّه من عوارض الغفلة!

وهي من جهة أُخرىٰ أشبه شيءٍ، لِغْير المرضىٰ والمصابين المبتلين، بجُرعات التلقيح وكسبِ المناعة ضد الأوبئة والأمراض الفكرية والروحية المتفشية في حياتنا.

وفي كلِّ واحدة من هذه المواقف والمحطَّات كثير مما ينبغي أن يُقال، ومباحث يطول بها وبنا المقام، ولكننا ضغطاً للبحث وصَبّاً له في خصوص مورده، نقفُ علىٰ رؤية إسلامية، وننتزع فهماً فكرياً، ونلاحظ منهجاً حركياً مغايراً، إن لم يكن مضادّاً لما يسعىٰ أرباب الحزبية ودُعاة التغييب إلىٰ طرحه...

ونحن عندما نختلف علينا أن نحتكم وننظر في أدلَّة الفريقين:

أيريدنا الله في هذا الخطِّ أم ذاك؟

أيهما يمثل التشيُّع الحقيقي؟

أيهما يشكِّل الحقَّ الذي يجب ٱتباعه؟

ولا سيَّما بعد الفراغ من أهمية الموضوع وخطورته، والألتفات إلىٰ عدم قبوله وإدخاله في "الأجتهاد" بمعنىٰ التعدديَّة في الأُسس العقائدية والأُصول، فتلك مذهبية!

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، ويلحُّ لا في طلب الجواب، بل في الأستنكار والأستهجان:

أين هذا الكمُّ الهائل من العناوين والمحطَّات، وما يقف خلفها من أحاديث وآيات وٱستدلالات علميَّة، في أُطروحة القوم؟

أين موقع الولاية و«الوليّ» عليه السلام في حركتهم؟

تُرىٰ هل جاءت كلُّ هٰذه الروايات التي يتجاوز عددها الآلاف لتُصنَّف، بمنتهىٰ البساطة، بل الاستخفاف والروعنة، كتَرفٍ فكريٍّ لا محلَّ له ولا دَوْر في حياتنا؟

هل يمكن الردُّ وهل يكفي أن يكون: "إن أداء الواجبات الشرعية والتقرُّب إلىٰ الله بها يحقِّق هدف الإمام وأمله، وحسبنا ذلك"؟!

❖ ❖ ❖

❖ بين الولاية و«العبادة الإبليسية»

إنَّ العبادة التي يمارسها أربابُ التغييب، وهذا الفهم والطرح الذي ينادون، ينطوي في جوهره وصميمه على حالة شيطانية "إبليسية"... وهي التي تنطلق في عبادة الله عز وجل من: "بشرط لا"، و"بشرط شيء"، مقابل العبادة الحقَّة التي تنطلق من: "لا بشرط".

فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يُعبد ويُطاع من خلال السجود لنبيِّ الله وخليفته وبِكْرِ حُجَجِه «آدم» عليه السلام، وهي رسالة تعني في عمقها "الولاية"، وتحمل خلافة الإنسان الأكمل، ولكن «إبليس» أبى وٱشترط في عبوديته الٱتصال المباشر بالخالق، والسجود لله سبحانه وتعالى بلا واسطة، حتى إنه وَعَدَ وتعهَّد ـ إن أعفاه الله من أمر السجود لـ «آدم» عليه السلام ـ أن يعبد الله عزَّ وجلَّ عبادة يعجب لها الخلائق من ملائكة وإنس وجن!...

فالله عزَّ وجلَّ يطالبنا من خلال نبيِّه وأوليائه عليهم السلام أن نعبده وَفْقَ منهج مُعيَّن، منهج يصبُّ في ولاية «أهل البيت»، ويتمحوَر حول إمامِ الزمان منهم، ومن خلال محطَّات ومواقف معينة، ثم يأتي من يجتهد ويقيس ويستحسن ويعمل على عبادة تنطلقُ من محورية أُخرى، ومحطات ومواقف أُخرى مختلفة (مهما تحلَّت بظاهر صحيح)!؟ ويأبى أن يدخل في الطاعة من الباب الذي فتحه الله لها، ويصرُّ على تسلُّق السور، أو ٱبتداع منفذ آخر غير باب الله!

إنه فهم ومنطلق إبليسي للعبادة، كأنه يفرض ٱحتياج الله سبحانه وتعالى (والعياذ به) إلى ركعاتنا المهترئة وصلاتنا الجوفاء! وهو الغني عن العالمين، إذ يقول عزَّ من قائل: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ (إبراهيم)...

ما أرادَ اللهُ منَّا إلّا الخضوع والمعرفة، وذلك في قوله تعالىٰ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ (الذاريات)، فالعبادة هي الخضوع والطاعة، وقد خرج «الإمام زين العابدين» عليه السلام علىٰ أصحابه يوماً فقال: "إن الله ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فقال له رجل: يا بن رسول الله، بأبي أنت وأُمّي فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهلُ كلِّ زمان إمامهم"[1]. وهم عليهم السلام "الأدلاء علىٰ الله"، الذين لا تتمُّ معرفة الله عزَّ وجلَّ إلّا بسبيل معرفتهم، وقد قال «أميرالمؤمنين» عليه السلام: "معرفتي بالنورانية معرفة الله"[2].

لا يصحُّ بأيِّ حال أن ننظر إلىٰ العبادات ونتعامل مع الأحكام والتشريعات الإلهية بمعزل وبشكل يفصلها عن هٰذا الإطار...

هٰذا هو الدين الحق الذي أخذناه عن تراث الأئمة وآثارهم، وما رُبِّينا عليه في مدرسة «أهل البيت» عليهم السلام... فعن «أبي جعفر الباقر» عليه السلام قال: "ذُرْوَة الأمر وسَنَامه، ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضىٰ الرحمن، الطاعة للإمام بعد معرفته... أما لو أن رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدَّق بجميع ماله، وحجَّ جميع دَهْرِه، ولم يعرف ولاية وليِّ الله، فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له علىٰ الله حقٌّ في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان"[3].

وعن «أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق» عليه السلام أنه قال: "والله لو أن «إبليس» ـ لعنه الله ـ سجد لله بعد المعصية والتكبُّر عُمْر الدنيا، ما نفعَهَ ذلك ولا قَبِلَهُ الله، ما لم يسجد لـ «آدم» كما أمره الله عزَّ وجلَّ أن

(١) ‹تفسير نور الثقلين› (ج٥ ص١٣٢ عن ‹علل الشرايع› لـ «الشيخ الصدوق»).
(٢) ‹بحار الأنوار› (ج٢٦ ص٧ ح١).
(٣) ‹الكافي› (ج٢ كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام، ح٥).

يسجد له، وكذلك هٰذه الأُمة العاصِيَة المفتونة، بعد تركهم الإمام الذي نَصَبَه نبيُّهم لهم، فلن يقبل الله لهم عملاً ولن يرفع لهم حسنة، حتىٰ يأتوا الله من حيث أمرهم الله بولايته، ويدخلوا من الباب الذي فتحه الله ورسوله لهم". [1]

وليس الأمر مجرَّد أخذ الأحكام وتلقِّيها عنهم، واْتباعهم في ما يروُون وينقلون عن جدِّهم ﷺ، وفي ما يفسِّرون من القرآن، وما يشرِّعون من الأحكام، لتكون مدرسة مقابل مدرسة «مالك» و«أحمد» و«أبي حنيفة» و«الشافعي»... كلَّا، فالمكلَّف إذا عَمِل بالفقه الجعفري وطبَّق "الرسالة العملية" كاملة، والتزمها حرفيّاً، ثم لم يكن يحبُّ «عليّاً» والأئمة من بنيه عليهم السلام، فيواليهم موالاة قلبية، قبلَ ومَعَ وبَعَدَ العَمَلِيَّة، لم يكن ذلك لينفعه في شيء.

فالرواية السابقة التي تتحدَّثُ عن مصير قائم الليل وصائم الدهر، لا تريد تخطئة طريقته في الصلاة وإدانة طقوسه في التعبُّد فحَسْب، فالمشكلة لن تُعالَج إذا مَسَحَ الرجل قدميه بدل غسلهما في الوضوء، أو أسبل يديه بدل التكفير في الصلاة... إلىٰ آخره من الفروق والاْختلافات الفقهية، فالبطلان هنا يعود لِعلَّة أُخرىٰ قد تحكم مَن يعمل بالفقه "الشيعي" أيضاً! المعضلة في الموقف والرأي ووَضْع القلب تجاه «عليٍّ» عليه السلام، هل يميل إليه ويحبُّه أم لا؟ "المعضلة" في الحالة العاطفية التي ترسم العلاقة بـ «أميرالمؤمنين» عليه السلام، في الإقرار القلبي بالولاية، والإذعان والتسليم لمتطلَّباتها ومُستلزَماتها، في اْستعداده للخضوع والتخلي عن "الكِبْرِ الإبليسي"...

---

(١) «وسائل الشيعة» (الباب ٦٩ من أبواب مقدِّمة العبادات، ح٣).

على العابد أن يحبَّ «عليّاً» ويواليه، وإلّا شملته الآية: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ (الفرقان).

من هنا ارتبط برُّ الأخوان المؤمنين (على سبيل المثال، وهناك عناوين أُخرى كثيرة تخضع للقاعدة نفسها)، هذا العنوان المستقلُّ في مادَّته وموضوعه المقرِّب إلى الله عزَّ وجلَّ، تراه ارتبط بولاية «أميرالمؤمنين» عليه السلام؟ فالأمر بما هو هو، له شأنيته، وهو "قيمة" في ذاته، دون رَبْطٍ وإضافة، ودون شروط، بعد الإخلاص بطبيعة الحال، ولكننا نجد في النصِّ عن «أبي الحسن» عليه السلام قال: "من أتاهُ أخوه المؤمن في حاجة فإنَّما هي رحمة من الله تعالى ساقها إليه، فإن قَبِلَ ذلك فقد وَصَلَهُ بولايتنا، وهو موصولٌ بولاية الله..." .[1]

تُرى، ما هو شأن ودخل "الولاية" في هذا العمل، ولماذا يرتبط بِرُّ الأخ المؤمن بها؟ هل لنا أن نتجاوز ونغفل هذا الربط وهذه المحورية بذريعة استقلالية العمل وذاتيته في القيمة والشأن؟ وهناك مئات الأحاديث التي تدور في هذا الفلَك وتحوم حول هذه الفكرة، ألا ينبغي أن يدعونا هذا إلى التساؤل عن سرِّ هذا الربط بالولاية والإصرار على جعلها محور الحركة؟!

ولَعَمْري، فالحقُّ أن يكون السؤال: هل عرفتم "الولاية" حين تخلَّيتم عنها وأنتم تعدُّونها من المتغيرات المتحوِّلات لا الثوابت[2] بذريعة

---

(١) «الكافي» (ج٢ ص١٩٦ ح١٣).

(٢) يقول مُخرِجاً الإمامة من الثوابت: "في داخل الثقافة الإسلامية ثابت يمثِّل الحقيقة القطعيَّة، مما ثبت بالمصادر الموثوقة من حيث السند والدلالة بحيث لا مجال للاجتهاد فيه، وهذا هو المتمثل ببديهيات العقيدة كالإيمان بالتوحيد والنبوة واليوم الآخر. وهناك المتحوِّل الذي يتحرك في عالم النصوص الخاضعة في توثيقها ←

التجديد، وبحجَّة حركية الحياة وتطورات الزمان التي لا تناسبها ولا تتوافق معها هذه الذهنية الرُجَعية والبالية في فهم الدين!؟

تعالوا لننظر في ما يقوله عالم فقيه، فيلسوفٌ حكيم، مجاهد ثائر، خاضَ الساحة ومارس الحياة السياسية، كما تدَّعون وتُنادون، بل نهض بالحكومة وأقامها، وعايش متطلَّبات الزمان والمكان، وحاجات المجتمع الثقافية والفكرية، وحمل لواء الوحدة الإسلامية ونبذ الطائفية، فالحجَّة عليكم فيه تامَّة، إذ لم يفرِّط في ما فرَّطتم، ولم يضطرُّه العمل السياسي إلىٰ ما اندفعتم فيه مكِبِّين راغبين... يقول «الإمام الخميني» قدس سره في ديباجة (شرح دعاء السحر) بعد الصلاة علىٰ «النبي» صلى الله عليه وآله :

> وآله المصطفين من الله، الذين بهم فَتَح الله، وبمعرفتهم عُرِفَ الله، الأسباب المتَّصِلة بين سماء الإلهية وأراضي الخلقيَّة، الظاهر فيهم الولاية، والباطن فيهم النبوَّة والرسالة، الهادين بالهداية التكوينية سرّاً، والتشريعية جهراً، الآيات التامَّات، والأنوار الباهرات.

←
ومدلولها للاَجتهاد، مما لم يكن صريحاً بالمستوىٰ الذي لا مجال لاَحتمال الخلاف فيه، ولم يكن موثوقاً بالدرجة التي لا يمكن الشك فيها، وهذا هو الذي عاش المسلمون الجدل فيه، كالخلافة والإمامة، والحسن والقبح العقليين الذي ثار الخلاف فيه بين العدلية وغيرهم، والعصمة في التبليغ وفي الأوسع من ذلك، بحيث يشمل الأفعال جميعها والآراء جميعها في شخص النبيِّ والأئمة، وفي المسار الجسماني والروحاني، وفي مستوىٰ علم الأنبياء والأئمة، من حيث علم الغيب ووَعي الأشياء في الكون والحياة، وفي مسألة حدود الشرك والتوحيد وغير ذلك مما يتَّصل بالجانب العقيدي". انظر مقالة «فضل الله»: "الأصالة والتجديد" المنشورة في (مجلة المنهاج البيروتية) (العدد الثاني ص٦١ سنة ١٤١٧هـ). ■

ثم ينقل «الخميني» في معنىٰ كون الولاية باطنها النبوَّة، عن أُستاذه وشيخه العارف الكامل «الشيخ محمد علي الشاه آبادي» أنه قال:

إنَّ السالكَ بقَدَم المعرفة إذا تمَّ سفره الثالث، (صار) يرىٰ بهويَّته الجمعيَّة في جميع مراتب الموجودات، ويرىٰ (أي يحيط ويعرف ويعلم) بعين البصيرة جميع مصالح العباد من أُمور المبدأ والمعاد، وما يقرِّبهم إليه ويبعِّدهم عنه، والطرق إلىٰ الله، و(صارَ) له التشريع في هٰذا المقام.

وكان هٰذا المقام حاصلاً لمولانا قطب الموحِّدين «أميرالمؤمنين» و«الأئمة المعصومين» من بعده، ولٰكن «رسول الله» ﷺ لمَّا تقدَّم عليهم زماناً، وكان صاحب (السبق في) المقام، أظهر الشريعة، فلم يبق مجال التشريع لأحَدٍ البتَّة، لتماميَّة شريعته، فلا بُدَّ للأولياء الذين من بعده (لا بد لهم) من متابعته.

ولو فرضنا ـ محالاً ـ تقدُّم «أميرالمؤمنين» عليه السلام (زماناً) عليه (أي علىٰ «النبيِّ») ﷺ، لَكانَ له (أي لـ «أميرالمؤمنين» عليه السلام) أن يُظهِر أمر الرسالة و(كان) لـ «رسول الله» تبعيَّته إذا جاء بعده، ولٰكن الحجَّة البالغة (قَضَتْ أن) يكون صاحب الشريعة (هو) «رسول الله» ﷺ.[1]

---

(١) (شرح دعاء السحر) لـ «الإمام الخميني» قدس سره (ص١٧، ط مؤسسة الوفاء ـ بيروت)، وما جاء بين قوسين ( ) في المتن المنقول، توضيح عمدتُ إليه.

هل يعلم هٰؤلاء المساكين، بل التُعساء الذين فرَّطوا في ولاية «أميرالمؤمنين» عليه السلام وجعلوها من المتغيرات لا الثوابت في الدين، ما الذي أضاعوه وماذا خسروا؟ وهم يجعلون "أمر الله" أُلعوبة ومادَّة لترَّهاتهم، ومنسوجات خيالاتهم، وشَطَحات جهالاتهم؟!

هل عرفوا شيئاً عن حقيقة الولاية؟

لو كان لَبَان، وما كانت جرأتهم ووَقاحتهم ستبلغ هٰذا الحدَّ لو أنهم عرفوا مَن هو «أميرالمؤمنين عليٌّ بن أبي طالب» عليه السلام...

ولنرجع إلىٰ ما يقوله «الإمام الخميني» قدس سره، هٰذا المرجع والحكيم العارف بـ «أميرالمؤمنين» عليه السلام، في كتابه النفيس (مصباح الهداية إلىٰ الخلافة والولاية):

إنَّ الأحاديث الواردة عن أصحاب الوحي والتنزيل في بدء خلقهم ـ عليهم السلام ـ وطِينة أرواحهم، وإنَّ أوَّل الخلق روح «رسول الله» و«عليٍّ» صلى الله عليهما وآلهما، أو أرواحهم، إشارة إلىٰ تعيِّن روحانيتهم التي هي المشيئة المطلقة والرحمة الواسعة، تعيُّناً عقليّاً.

لأنه أوَّل الظهور هو أرواحهم ـ عليهم السلام ـ، والتعبير بالخلق لا يناسب ذلك، فإن "مقام المشيئة" لم يكن من الخلق في شيء، بل هو "الأمر" المشار إليه في قوله تعالىٰ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. وإن أُطلق عليه "الخلق" أيضاً، كما وَرَدَ منهم عليهم السلام: "خلَقَ اللهُ الأشياء بالمشيئة، والمشيئة بنفسها".

وهـٰذا الحـديث الشريف أيضـاً من الأدلَّـة علىٰ
كون المشيئة مُطلَقة، فوق التعيُّنات الخلقيَّة من
العقل وما دونه. (١)

وإنما جئت بكلام وآراء «الخميني» حتىٰ يسقط تسويغ اتجاههم ذلك المنحىٰ، وأسدَّ ذريعة "متطلبات الحركية" و"الحالة الثورية"... فهل بلغوا مستوىٰ «الخميني» في ثوريته، أو تجاوزوا حركيته، ليحتاجوا إلىٰ ما وَقَعُوا فيه!؟ وحتىٰ لا يُتَّهم المؤمنون بتبنِّي آراء ومعتقدات عاميَّة لا دليل عليها (كلام عجائز، كما يعبِّرون!)، فنحن هنا أمام شخص تربَّع علىٰ قمَّة الهرم العلمي للطائفة... وحتىٰ لا يُطعنَ أحدٌ بعد ذلك بالإفراط والغلو، فقد تجاوز الرجل سيرة وسلوكاً وفكراً ما يسمح لأحد بالطعن فيه والنيل منه.

ولست أطرح هـٰذا علىٰ نحو التهويل والإرهاب الفكري والمزايدة، فـ «الخميني» هنا نموذج وشاخص يُشار إليه فحَسْب، وإلّا فإن هـٰذه الأفكار والعقائد تدخل بمجموعها في بديهيات فِكر الإمامية ومسلَّمات عقيدة الشيعة التي يلتقي عليها علماء الطائفة بأسرهم.

❖ ❖ ❖

❖ إلغاء مواقع اللقاء ومحطَّات التزوُّد

وتأخذ المأساة أبعادها الخطيرة، وتنكشف خطوط المؤامرة جلِيَّة وَاضحة، بل مُفتضحة، عندما نجد أنَّ أربابَ هذا التيار (خطِّ التغييب) ينادون ـ عمَلِياً ـ بإلغاء هذه المواقع والمحطَّات، سواء كانت أدعية وزيارات، أو آداباً وأعمالاً خاصة، أو أفكاراً ومعتقدات! ليقطعوا بذلك الخيط الأهم والطريق الأوسع للتفاعل والاتصال الروحي والارتباط بين المؤمن ومولاه عليه السلام...

فهناك تصريحٌ بإنكار عقيدة الرجعة، ورفضُ دعاء الندبة، ودعاء التوسُّل، وزيارة الناحية، وزيارة عاشوراء، والزيارة الجامعة... [1]

---

(١) سُئل (في استفتاء منشور على موقعه الإلكتروني: istif@bayynat.org.ib):
س ١: ما رأيكم في اللعن الوارد في زيارة عاشوراء؟
س ٢: ما نوع التحفُّظ لديكم على الزيارة الجامعة الكبيرة؟
فأجاب: ج ١: لم يثبت لدينا صحَّة هذه الزيارة لضعف بعض رواتها.
ج٢: أولاً، إن طريق «الصدوق» إلى الراوي غير نقي... وثانياً، بعض فقَراتها يخالف بوضوح ظاهر بعض الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾. والمقصود عبارة: "وإيابُ الخلق إليكم وحسابهم عليكم". (تاريخ التوقيع: ٢٦ جماد الأول ١٤٢٥)
وقد تصدَّى لِردِّ مقولات «فضل الله» هذه وغيرها كإنكاره الشهادة الثالثة في الأذان، وتحفُّظه على دعاء التوسُّل، وما إلى ذلك، تصدَّى جملة من الأعلام، منهم المرجع الأعلى سماحة آية الله العظمى «السيد السيستاني» دام ظله فكتب:
" إنَّ أمثال هؤلاء لا بدَّ من التحرُّز والتحذُّر عنهم، وترك معاشرتهم، وعدم أخذ معالم الدين منهم، فإنَّهم لا يقصدون الخير والصلاح للأُمَّة بمثل هذه الشبهات والتخفُّظات، وإلّا فالسؤال الأساسيُّ هو ما المانع من قراءة دعاء التوسُّل حتى لو كان من تأليف بعض العلماء؟ مع أنَّ المحدِّث «القمي» يسنده إلى «المعصوم» عليه السلام، وما المانع من الشهادة الثالثة في الأذان بدون قصد الجزئية، ←

←
مع أنَّ الأدلَّة المعتبرة تُثبت ٱستحبابها، بل ظاهرها وُجوبُ الشهادة الثالثة بعد الشهادتين؟ وهل المجتمع الشيعي أو الإسلامي سوف يتضرَّر من ذكْر الشهادة الثالثة في الأذان أو الإقامة، والحال أنَّ شِعار الشيعة الشهادة الثالثة. وهكذا الزيارة الجامعة التي قال عنها الأعاظم كـ «المجلسي» ووالده وغيرهما إنها من أصحِّ الزيارات متناً وسَنَداً، وهل قراءتها يوجب الكفر والشرك أو الأنحراف؟ وهل ذِكْر «المعصومين» عليهم السلام بهذه الأوصاف والنعوت التي ثبت أكثرها بالدلائل القطعية يكون فيه ضَرَرٌ وفسادٌ حتىٰ نتحفَّظ منه؟ وزيارة عاشوراء التي ٱشتهرت عند العلماء والفقهاء وتلقُّوها بالقبول وداوموا علىٰ قراءتها وذكَرُوا لها الآثار العجيبة والبركات العظيمة وقد رَواها المحدِّثون الأجلّاء بطُرُق متعدِّدة، ورُوِيَت مضامينها في زيارات أُخرىٰ وروايات أُخرىٰ حيث تكون متواترة مضموناً... لماذا تكون مورداً للتحفظ عند هؤلاء ويذكرون الشُبَه حولها؟ إنَّ أمثال هؤلاء سوفَ يأتي عليهم زمانٌ ينكرون أكثر مبادئ الإسلام وأحكامه، ويفسِّرون القرآن بآرائهم، بل إذا سمَحَت لهم الظروف، ينكرون مُحكمات القرآن، وذلك لسببين أساسيين، مع أسباب أُخرىٰ لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ: الأوَّل: حبُّ الدنيا والرئاسة والأشتهار، فإنهم عملوا بقاعدة "خالِف، تُعرَف". والثاني: إرضاء الشباب المنحرف، والجمعيَّات والمذاهب والمسالك الباطلة، والأديان الأخرىٰ.

والعبرة في الزيارات والأدعية ليست صحَّة السند، بل مضمون الزيارة والدعاء، ومضمون الزيارتين من أعلىٰ المضامين، فيحصل الوثوق بصدورهما من «الأئمة». واللعن في القرآن ليس بعزيز، وقد تواترت الروايات باللعن حتىٰ بالنسبة لمن يرتكب المكروه، فكيف بالعاصي والظالم، ومَن آذىٰ «رسول الله» صلى الله عليه وآله، ومَن كَتَمَ الحقَّ؟! قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ (البقرة)، والآية تدلُّ علىٰ وجوب اللعن مستمراً علىٰ كلِّ مَن كَتَمَ الحقَّ، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ٥٧﴾ (الأحزاب)، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ٦٠﴾ (الإسراء)، وقد فسِّرَت عند أكثر المفسِّرين بـ «بني أُميَّة»، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ (هود).

←

←

وردَّ عليه آية الله العظمىٰ «الميرزا جواد التبريزي» قدس سره:

" زيارة عاشوراء وزيارة الجامعة من الزيارات التي عمل بها العلماء والصلحاء وٱشتهرت بين الشيعة ، ومضمونها صحيح قطعاً " .

وأجاب آية الله العظمىٰ «السيد محمد سعيد الحكيم» دام ظله فكتب:

مضافاً إلىٰ أنَّ متن الزيارة شاهِدٌ بأنه من كلام «الأئمة» عليهم السلام، بملاحظة أسلوبها البياني ومضامينها العالية التي تضمَّنتها أحاديثهم والزيارات والأدعية المنقولة عنهم صلوات الله عليهم، ولا يسَعُ المنصف إنكار ذلك... فأغلب المضامين المذكورة أو كلُّها، بين ما هو مقطوع به من واقع الحال، وما قد وَرَدَ عنهم صلوات الله عليهم في نصوص كثيرة جداً، في مناسبات مختلفة، فهي قد جَمعت ما تفرَّق، ونظَمَت ما ٱنفرط، في أسلوب بيانيٍّ رائع يأخذ بمجامع القلوب، دُونَ كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، عليه من بهاء المعارف الإلهية التي تميزت بٱمتلاكها وحملها هٰذه الفرقة المحقَّة، لتكون شاهد صدق علىٰ ٱنتسابها لـ «أهل البيت» عليهم السلام وأخذِها منهم، وٱندماجها معهم. ويكفينا شاهداً علىٰ صِدْق هٰذه الزيارة وأخذها منهم عليهم السلام أن يجري المشكِّك مهما بلغ من المعرفة وحسن البيان، فيخترع ما يشبهها، من دون أن يلتقط من شذرات «أهل البيت» عليهم السلام ويسرق من جواهر كلامهم، ثم ينظر أين يقع ٱختراعه منها إذا قيس بها ووُزن معها. وكفىٰ بهٰذا دليلاً للمُنصف وحجَّة علىٰ المتعنِّت ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ (الأنعام).

وحتىٰ يقف القارئ علىٰ تجذُّر هٰذا المعتقد وعمقه في التشيُّع، وأنَّه ليس وليد الأزمة التي ٱفتعلها " إمام الضلال " ، ولا من تداعيات ردِّ الفعل والمواجهة (مما يغمز به بعضهم!)، نأتي بشاهد من غير عصرنا، فقد ذكَرَ العلامة «السيد عبدالله شبَّر» قدس سره في (الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة):

" ٱعلم أنَّ هٰذه الزيارة قد رواها جملة من أساطين الدين وحملَة علوم الأئمة الطاهرين، وقد ٱشتهرت بين الشيعة الأبرار ٱشتهار الشمس في رابعة النهار، وجواهر مبانيها وأنوار معانيها دلائل حقٍّ وشواهد صدقٍ علىٰ صدورها عن حملة العلوم الربانية وأرباب الأسرار الفرقانية، المخلوقين من الأنوار الإلهية، فهي كسائر كلامهم الذي يغني فصاحةُ مضمونه وبلاغة مشحونه عن ملاحظة سَنَدِه، كنهج البلاغة والصحيفة السجادية وأكثر الدعوات والمناجاة " . ■

هناك تشكيكٌ وطَعنٌ ونبذٌ لجلِّ تراث الولاء ودعائمه...

هناك ٱستخفافٌ ورفضٌ لشعائر العزاء الحسيني، وتجاهلٌ وإعراض عن إحياء مناسبات مواليد «الأئمة» ووَفياتهم، وهناك تحفُّظ وٱعتراض علىٰ زيارة العتبات المقدسة (بل ٱستهزاء ببعض طقوس الزيارة، بألفاظ وتعابير نابية)، وتحريم للتوسل بـ «الأئمة» ﷺ، وعقد النذور... إلىٰ آخر ذلك من مقولات الوهابية!

وقد عمد "إمام التغييب"، هٰكذا بلا أيِّ معالجة علمية فنية وٱستدلال وَفق الأُصول والقواعد المعموم بها في المقام، عمَدَ إلىٰ موقف أساسٍ يكفيه مؤنة البحث والتنقيب، ولجأ إلىٰ خُطوة جذرية توفِّر عليه جهد التتبُّع والملاحقة... فقد تبنىٰ ونادىٰ برفض "قاعدة التسامح في أدِلَّة السُنن" المعروفة التي يعمل بها جميع الفقهاء! ومؤدَّاها أنَّ إثبات الحُجيَّة في المستحبَّات والمكروهات لا يشترط فيه ما يُشترط في الواجبات والمحرمات.[1] وبِلُغة أُخرىٰ، أو بتعبير آخر، فأنت عندما تجد (علىٰ سبيل المثال) رواية تندب إلىٰ قراءة ذكر: "بٱلله ٱعتصمتُ وبٱلله أثقُ وعلىٰ الله أتوكَّل" عشراً بعد صلاة الظهر، أو رواية تحثُّ وتندب إلىٰ قراءة "دعاء العهد" الذي يجدِّد فيه المؤمن بيعته لـ «إمام الزمان» ﷺ أربعين صباحاً متتالياً، يمكنك العمل بها دون إخضاعها للمعالجات الفنيَّة التي يمارسها الفقيه وهو في مقام الإفتاء بالوجوب أو الحرمة، ٱعتماداً علىٰ قاعدة التسامح.

---

(١) قال «فضل الله» في نشرة "فكر وثقافة" (العدد ٥٤٩) حول "قاعدة التسامح في أدلَّة السُنن": "هٰذه قاعدة لا قيمة لها في ذلك ولا أساس... نحن نقول: إذا لم يكن الخبر موثوقاً سواء كان في دعاء أو في زيارة أو في حكم واجب أو محرَّم أو مستحب أو مكروه، فلا قيمة له"!

فجاء الرجل لِيَنْسِفَ هذه القاعدة بحجَّة أنَّ لها سلبيات "جعلَت الكثيرين يعتمدون على الحديث وإن كان الراوي كذَّاباً وَضَّاعاً غالِياً، أو كانت الرواية مُرسَلة، وعلى هذا الأساس دَخَلَ إلى ذهنيَّتنا الإسلاميَّة، وإلى تقويمنا للأشياء الكثير من الأحاديث الغير صحيحة (هكذا في النصِّ!) في ثواب الأعمال وعقابها". وهذا يعني ـ عمَلِيّاً ـ تعطيل العمل بالمستحبَّات وإلغاءها تماماً!

وكيف يكون ذلك إلغاءً عمَليّاً للأدعية والزيارات؟

والجواب: أمَّا الأدعية والمناجاة الإلهية، فتكتسب مشروعيتها من دخولها في عموم ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ۝٦٠﴾ (غافر)، وهذا لا خلاف فيه بيننا وبينهم، وهم لا يمانعون منه، فلَكَ أن تقرأ ما شئت وأن تدعو الله بأيِّ نصٍّ أردْتَ، مأثور أو غير مأثور، والنصوص التي لم تثبت صحَّة روايتها عن «المعصومين»، يمكنك أن تتلوها بنيَّة مُطلَق الذكر، بل يمكِنُك أن تؤلِّف نصّاً من عندك وتدعو الله به، أو تتلو ما ألَّفه ووَضَعَه غيرك من الناس. (وهذا ما يُفسِّر عدم ٱلتزامهم بتوقيفيَّة الأدعية المأثورة، بل ٱستخفافهم بهذا القول، فيضيفون في الدعاء ويُنقصون، ويُدخلون ويُخرجون دون مانع ولا زاجر!).

ولكن، تبقى الأذكار والتوسلات والزيارات، والأعمال والشعائر المرتبطة بـ «الأئمة» المعصومين عليهم السلام والنصوص المتعلِّقة بمخاطبتهم، التي توظَّف وتصبُّ في الٱرتباط المباشر والتفاعل المستمر معهم... هذه ينبغي أن تخضع في ٱستحبابها، وكوْن الشارع المقدَّس ندَبَ إليها (بعد إلغاء قاعدة التسامح في أدلَّة السُنن)، تخضع للبحث الفقهي المعمَّق ليتقرَّر أيٌّ منها مشروع؟ إذ يجب أن يصحَّ سند الرواية التي ندَبت إليه، ويستقيم مدلُولها!

ومن ضمن "ٱستقامة المدلول"، عدم معارضته للعقل ولمسلَّمات الإسلام (عندهم وحَسْب فهمهم)، فإذا قرَّرَ نصٌّ أنَّ مَن زار «سيِّد الشهداء» عليه السلام وجَبَت له الجنَّة، أو من بكىٰ علىٰ مصاب «الحسين» عليه السلام غُفِرَت جميعُ ذنوبه... لا يمكن القبول به ولا بدَّ من رفضِه، ولا يجوز العمل به، لأنه يلغي قواعد الحساب والعقاب، ويناقض قانون العدالة الإلهية... هٰكذا!

ومؤدَّىٰ ذلك تعطيل جميع الأوراد والزيارات والأعمال من المستحبات التي جاءت في كتب الأدعية مثل ‹مفاتيح الجنان› لـ «الشيخ عباس القمي»، و‹المصباح› لـ «الكفعمي»، و‹مصباح المتهجِّد› لـ «الشيخ الطوسي» و‹الإقبال› و‹مُهَج الدعوات› لـ «السيد ٱبن طاووس» وغيرها... فالفقهاء يقضون أعمارهم ولا يتمكَّن إلّا بعضهم من إتمام بحثه الٱستدلالي الذي يغطِّي جميع أبواب الفقه (دورة كاملة)، بعناوينه الفعليَّة (والتي ينادي كثيرون الآن بتوسيعها لتشمل ما ٱستجدَّ من فروع وأبواب مما يبتلىٰ به الناس من مُستَحْدَثات المسائل)، فأين الوقت للبحث في الأدعية والزيارات؟ وهٰذه تناهز، إن لم تكن تفوق، الفقه حجماً وكمّاً! ومتىٰ عساهُ أن يؤدي هٰذه المهمَّة الجديدة؟!

ولا يخفىٰ أنَّ كتب الأدعية المشار إليها هي من تأليف علماء أجلّاء وفُقَهاء عِظام من الطراز الأول، وقد خضعت للتحقيق والتدقيق ثم صُنِّفت بعد ذلك، ولٰكن هٰذا لا يكفي - علمِيّاً - وفق موازين الفقاهة والٱجتهاد، أن نقطع بٱستحبابها إذا ما ٱنتفت قاعدة التسامح في أدلَّة السُنن، فلا مناصَ من إخضاعها للبحث من جديد ليثبت سنداً ودلالة ما جاء فيها، كلٌّ منفرداً علىٰ حِدة، ووَجَبَ الرجوع في ذلك إلىٰ الفقيه الأعلم الحيِّ ليُحدِّدَ المستحب منها ويميِّزه!...

هٰذا ما يُطالِب به أربابُ التغييب وينادُون!

فتصبح النتيجة العمَلِيَّة، في زماننا الحاضر في الأقلِّ (إذ لربما جاء في المستقبل أعلَمُ الفقهاء، الذي يجب تقليده، وعالَج نصوص الأدعية وحَدَّدَ أحكامها إلىٰ جانب ٱشتغاله بالفقه، وألحَقَ برسالته العملية كتاب دعاءٍ ومَزار)، لهٰذا الطرح هو تعطيل الزيارات والأدعية والمستحبَّات التي ترتبط بـ «الأئمة» عليهم السلام. فلا يعود من الجائز قراءة دعاء العهد، ولا دعاء الندبة، ولا دعاء التوسُّل، ولا زيارة عاشوراء، ولا أيٍّ من الأدعية والزيارات ما لم "يُفْتِ" بها "مُفتٍ"!

نعم، لا بأس بدعاء كميل، والصحيفة السجادية، والأدعية التي تدخل في عموم ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، و﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۝٧٧﴾ (الفرقان)، و﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۝١٨٦﴾ (البقرة)... وبقية الآيات القرآنية التي حثَّت علىٰ دعاء الله.(١)

---

(١) ومن المفارقات أنَّ «فضل الله» الذي ٱستشكل علىٰ جملة من الزيارات لرأيه في سنَدِها، قد قال بثبوت أدعية وزيارات أُخرىٰ، علىٰ الرغم من عدم ٱعتبارها من الناحية السندية. يقول في محاضرة له:

" فإننا نجد أن الصحيفة السجَّادية الكاملة بلغت من الوثاقة والشهرة المستوىٰ الذي لا يحتاج الإنسان أن يبحث في سندها " ! راجع:

www.bayynat.org/bayynatsite/www/arabic/ahlalbeit/zain3abedeen.htm.

وقد صرَّح في (الندوة) (ج١ ص٤٩٧) بثبوت الصحيفة السجادية ودعاء كميل وأدعية الإمام «زين العابدين» (ع) بشكل عام وإن لم تثبت بسند معنعَن، علىٰ حدِّ قوله! ويقول في خطبة الجمعة بتاريخ ٢٦ محرم ١٤٢٢هـ: "وعندما ندرس الإمام «زين العابدين» (ع) في أدعيته، سواء في "الصحيفة السجادية" أو في غيرها مما روي عنه، فإننا نجده قد جعلَ من الدعاء عنصر ثقافة، يتحدَّث من ←

أمَّا التوسُّلُ والتشفُّعُ، وزيارة «الأئمة»، وقصدُ الأولياء، وشدُّ الرحال إلىٰ عتباتهم، وأية شعيرة تتحرَّك في طريق الأرتباط بهم، كإحياء مناسبات مواليدهم ووَفياتهم... فهٰذا ما لم يثبت عندهم.

لَعَمْري، وهل يجدون أفضل من هٰذا المدخل وَسيلَة لِقَطْع صِلَةِ المؤمنين بأئمتهم وتغييب دور «إمام الزمان» عليه السلام وحضُوره!؟

يبدو بوضوح أنَّ هٰذه الفرقة الجديدة، تأبىٰ نفسياً وعمَلياً، وإن أُرغمت نظرياً وعلمِيّاً، أن تَقْبَلَ بالأدعية والأذكار والزيارات التي تقع وتصبُّ في ترسيخ ولاية «أهل البيت» عليهم السلام، والحثِّ علىٰ محوريَّة هٰذه الولاية ومركزيتها، وإن صحَّت سنداً وتمت دلالة، فمُشكلة هٰذه الفرقة مع نوع اتجاه هٰذه المأثورات، لا مع نوع السند في الرواية، وهَمُّ هٰذه الفرقة الضالَّة هو تفريق الناس عن «أئمَّة الهدىٰ»، لا العلم والفقاهة، ولا الإتقان والدقَّة، وإحكام الأدلَّة وضبط الأُصول!



← خلاله وهو بين يدي الله تعالىٰ عن كلِّ جوانب العقيدة، فأنتَ عندما تقرأ دعاءه بين يدي الله فإنك تقرأ كل عناصر التوحيد... ومن هنا، كانت أدعيته (ع) أدعية ثقافية، بحيث لا ينفتح فيها الإنسان علىٰ مجرَّد ٱبتهالات روحية بين يدي الله، بل يأخذ المفاهيم الإسلامية في كل جوانب حياة الإنسان... " ! راجع:

www.bayynat.org/bayynatsite/www/arabic/khotbat/kh2611422.htm

هٰكذا تظهر الحقيقة، وهي أنَّ القضية عند الرجل ليست الأمر العلمي ومسألة التثبُّت من النقل وصِحَّة سند الدعاء والزيارة، بل هي في طرح التراث الذي يراه (كما الوهابية) "شركاً" يربط المؤمن بغير الله. وإلّا فهو لا يمانع من الأرتباط المباشر بالله سبحانه وتعالىٰ عبر كلِّ دعاءٍ يخلو من التوسُّل بـ «أهل البيت» والتشفُّع بهم، وإن كان مُرسلاً. ■

❖ إلفاتٌ وتذكير بأساليبهم

مما ينبغي ملاحظته بوَعي وذكاء، خُبث الوسيلة والدهاء في ٱستعمالها، في ما يلجأون إليه لِنَشْر أفكارهم وتنفيذ مشروعهم...

فهم (كخُطوة مرحلية) لا ينكرون وُرُودَ هٰذه المستحبَّات، ولا يقولون ـ دائماً ـ إنها بِدَع[1]، بل يطالبون بمراجعتها وتنقيحها، وإعمال الضوابط الفقهية عليها، مثلما تُعمل علىٰ الواجبات والمحرمات.

ولٰكنهم يحقِّقون ـ عملياً ـ النتيجة التي يريدون!

ولا يعني هٰذا أنها تسلَمُ من طعونهم وتشكيكاتهم وتطاولهم علىٰ مضامينها والمفاهيم التي تطرحها، فهٰذا ـ بالأصل ـ هو موضع النزاع ومنشأ الحساسيَّة التي تثيرهم وتدعُوهم لمحاربتها، ولٰكن يعني المكر في أُسلوب العمل والحيلة في توجيه الضربة!

وينبغي الاْلتفات إلىٰ نقطة أساسية في أساليب التضليل والتشكيك، فشأنُ المشكِّك أن لا يعرض رأيه خالصاً ولا يقدِّمه صِرفاً (وإلّا صارَ مُعلِناً الحرب، ولم تَعُدْ صفة المضلِّ والمشكِّك تنطبقُ عليه).

فدُعاة الإباحية والتحلُّل الأخلاقي مثلاً، تراهم لا ينادون ويطالبون به مباشرة لشدِيدِ قبحه وفَرْط حساسيَّة المسلمين تجاهه، ولٰكنهم يرفعون شعار الحريَّة الشخصيَّة، وتحرير المرأة من ٱستبداد الرجل، وضرورة إعطائها دوْراً في الحياة الاْجتماعية والسياسية، وإنهاء تعطيل طاقات " نصف المجتمع " بخروجها للعمل ومشاركة الرجل...

---

(١) وإن زلَّ أحدهم وفلَت لِسانه، فكشَفَ ما يضمر قلبه، وهو ينعت إحدىٰ الشعائر الحسينية (التطبير) بـ " البدعة "، إلّا أنه ما لبث أن تراجع وسحَب تعبيره هٰذا حين كشف له مستشاروه فقدانه لأية ركيزة علميَّة تسمح به، لٰكنه ظلَّ وبقي علىٰ معاداته للشعائر، وعكف محارباً لروَّادها والناهضين بها.

فيتحقَّقُ الاْختلاط وتسقط الحواجز، وتتطبَّع العِشرة وتجري بأسترسال، وينحسر الحجاب ويخفُّ الحياء وتقلُّ الحشمة، وتنمو جرأة النساء وتزداد وَقاحَةُ الرجال، ويزول قَبْحُ القبيح شيئاً فشيئاً، فيصبح الأمر "عاديّاً"، وهكذا حتى يبلغوا الغاية النهائية.

وكذلك الأمر هنا، فهم أمام حصون العقيدة[1]، وقلاع بنت أسوارها دماءُ وجهودُ آلاف العلماء والشهداء، فهوَت إليها الأفئدة وحامَتْ حولها القلوب وعشقتها النفوس، فأرتبطت بها قلباً وقالباً، ووَالَتها ولاءً دفعت ثمن التمسُّك به والثبات عليه أستضعافاً دام أربعة عشر قرناً! فلا يمكنها السماح لأحدٍ أن يمسَّها وينال منها... حُماة مؤتمنون، يتربَّعُون على قِمَم العِلْم والفضيلة والوعي والبصيرة، يعرفون هذه الأساليب وهُمْ بالمرصاد لكلِّ بدعَة وضلالة...

ولديهم جيوشٌ مجنَّدة من المؤمنين الفدائيين الذين يقفون على أُهْبَة الأستعداد لمزيد من التضحية والفداء، وهم يضعُون الأرواح على الأكفِّ طَوْعَ الأمر ورهن الإشارة.

لذا كان لا بدَّ لهم من "المرحليَّة"...

وتحت العنوان الذي أتخذوه شعاراً ومنطَلَقاً لطروحاتهم: "لا مقدَّسَ في الحوار"، تراهم يلجأون إلى المرحلية والتدرُّج، فيبدأون بـ "صدم الواقع"، وإحداث هزَّة تزيل أو تخفف من قُبحِ القبيح، وتنزل المقدَّس من موقعه وهي تُشكِّك فيه، وتضعه على مائدة البحث والمداولة، دون إدانة مُسبقة ولا رفض متقدِّم!

---

(١) وفي الحديث الشريف عن «أبي الحسن موسى بن جعفر» عليه السلام قال: "... لأنَّ المؤمنين الفقهاء حصُون الإسلام، كحِصْن سور المدينة" روي في ‹الكافي› (ج١ ص٣٨ ح٣، باب فقد العلماء).

إنهم يزايدُون أو يتقدَّمون على ولاية «أهل البيت» تارة، من حيث زعم تحرِّي ما يقرِّبهم إلى الله مباشرة، وطلب التنزيه عن الشرك والخلوص من البدع، فيمرقون - في واقعهم - ويغرقون ولا يدرون! ويتخلَّفون ويرغبون عن الولاية تارة أُخرى، وهم يتحفَّظون، ويظنُّون أنهم يحتاطون لدينهم، فيزهقون - في واقعهم - ولا يعلمون! إنهم يرفضون أصل التبري من أعداء «آل محمد»، ويبتدعون مذهباً جديداً... ولكنهم لا يُجاهرون في كلِّ ذلك ولا يُصرِّحون، إنما يطرحون أفكارهم ويبثُّونها في طيَّات البحوث، وما بين السطور. وسأستعرض هنا بعض الأمثلة التي تكشف أساليبهم كقول إمامهم وكبيرهم:

"إن مشكلتنا هي أنَّ حديث الغدير من الأحاديث المرويَّة بشكل مكثَّف من السنَّة والشيعة، ولذلك فإنَّ الكثير من إخواننا المسلمين السنَّة يناقشون الدلالة ولا يناقشون السند، في الوقت الذي لا بُدَّ أن ندرس القضية من خلال ذلك أيضاً"![1] ويقول: "علينا أن نمارس خلافنا كما مارسه الأوَّلون، فقد مارسوه فيما لم يكن الاختلاف مضرَّة للإسلام، حتى سارت المسيرة الإسلاميَّة في طريقها المستقيم"[2] ويقول مُصوِّراً الحال بعدَسَة تتفوَّق على الرؤية السُنيَّة: "لم يحدث هناك أية سلبيَّة حيال «النبي» في كلِّ واقع الإسلام"[3] ويلتمس العذر للمعترضين على «رسول الله» ﷺ بل يثني عليهم: "اعتراض بعض الصحابة على «النبي» يوم الحديبية كان وَعْياً منهم"![4]

(١) انظر: «الندوة» (ج١ ص٤٢٢).

(٢) انظر: «فكر وثقافة» (تاريخ ٢٧/٦/١٩٩٧، ص٣٢١).

(٣) انظر: «الإنسان والحياة» (ص٣١٨).

(٤) انظر: «الندوة» (ج١ ص٣٢١).

إنه يُشكِّكُ في "الغدير"، ولا يفرض وُقوع الأنحراف بعد «النبيِّ»، ويصوِّر الأمر مُضِيّاً في "الطريق المستقيم"، ويسوِّغ لـ "الصحابة" وينزِّههم، ويُسقط أصل التبري، ويلفِّق ويزوِّر ويغرِّر... ولكنه يلفُّ ذلك كلَّه ويضعه في إطار يحبُّه الشيعة، ويقدِّمه في مشروع يرحِّبون به، هو الوحدة الإسلامية ونبذ الخلاف والصراع المذهبي، وتحرِّي المصلحة العليا للأُمة، يفعل ذلك بدَهاء مَن وَقَفَ على ما تعانيه هذه الطائفة المحرومة من ظلم وقَهْر وٱضطهاد بسبب "أقليَّتها"، وعرَفَ تطلُّعها لأيٍّ مشروع ينقذها من أزمتها الدائمة التي لا تنفك، ويخرجها من "الحصار" الأجتماعي الذي طالما لزمها، منذ طليعتها الأُولى في "شِعب أبي طالب" وحتى يومنا هذا.

وبين هذا وذاك، يضيع الغرض البعيد، ولا تتَّضح صورة المشروع الحقيقي، وتبقى مغلَّفة ومغلقة، بما يحقِّق دَوْر المرحلة! وهكذا الأمر في الموقف من واحدة من أبرز معالم التشيُّع وخُصوصِيَّات الشيعة، أي زيارة مراقد «الأئمة» عليهم السلام فيقول: "ما الفائدة التي نستفيدها من أن نمسك الشباك، أو نُمسِك الحديد... فكما قُلنا هذا ليس حراماً، كما يقول الآخرون، وليس ضرورياً، فيمكن ترك ذلك".[1]

ويقول: "قد ينبغي لنا أن نفكِّر بالعمل على تجديد الزيارات المرسومة لـ «النبي» أو لـ «الأئمة» من «أهل البيت» بٱعتبار حاجة المرحلة الإسلامية العالمية المعاصرة، يكفي الزيارة من المسجد، وأن يتصَّور الإنسان حياته، ليس من الضروري أن يذهب إلى قرب الضريح"![2]

---

(١) انظر: ‹الموسم› (ج٢١ـ٢٢ ص٢٩٩وص٧٤).

(٢) انظر: ‹في آفاق الإمام الكاظم› (ص١١).

ويقول مُعرِّضاً ومتهكِّماً ومستهزئاً: " يجلسون أمام قبر «النبيِّ» أو «الإمام» كأنَّهم يتعبَّدون " ! [1]

فهو يطرح فكرته من شعيرة زيارة العتبات المقدَّسة، ويبثُّ ضلالته ويدسُّ إفكه وينفث سَمَّه، ولـكنه يسبق ذلك بـ: "ليس حراماً كما يقول الآخرون" ! إنه لا يصرِّح برفض الزيارة ولا يجاهر بالدعوة لتعطيل المزار، ولـكنه يطرح أُموراً تهزُّ الصورة وتخدش القدسيَّة من خِلال المطالبة بـ "تجديد" صوَرِ وطُرِقِ وطُقوس الزيارة، وكأنها قضيَّة ٱجتماعية لا شرعية توقيفية، وسلوكيات شخصيَّة يمارسها العوام، لا هي من ديْدَن العلماء ومن سيرة المتشرِّعة ومنهج العُبَّاد!

إنهم لا ينفون أو يرفضون ـ ٱبتداءً ـ دور العاطفة في بناء الشخصية الإيمانية، ولا يطالبون بإنهاء الٱرتباط العاطفي بـ «أهل البيت» عليهم السلام، ولـكنهم يطرحونه بالشكل الآتي:

" أيها الأحبَّة، علينا أن نعلم أن الله سبحانه لم يُحدِّثنا عن جمال «النبيِّ»، فنحن لا نعرف من خلال القرآن لونَ عيونه ولون وَجْهِه! هل هو أبيض أو أسمر، نحن لا نعرف هـذا الشيء، لـكننا نتغزَّل به الآن من خلال تفصيلات ذاته الجسدية حتىٰ صرنا نرتبط بـ «النبيِّ» عاطفياً، وهـذا وَحْدَه لا يكفي، فلا بُدَّ لنا من تجديد أساليبنا. وإني أرجو من كلِّ إخواني من خطباء وعلماء ومثقَّفين عندما يقدِّمون «النبيَّ» و«الأئمة» لِكُلِّ جيل، عليهم أن يقدِّموهم من خلال ما يتمثَّل في سيرتهم من المبادئ والخطوط العامة والحركية وما إلىٰ ذلك ". "نريد أن نؤكِّد علىٰ عدم الٱستغراق الذاتي بشخصيَّة «الرسول» " . [2]

---

(١) انظر: (المعارج) (عدد:٢٨ـ ٣١ ص٦٢٤وص٣٢١).

(٢) انظر: (من وحي القرآن) (ج٦ ص٢٩٦).

والشاهد في: "وهـٰذا وَحْدَهُ لا يكفي"... فالسياق والهدف هو إلغاء الآرتباط العاطفي، ولـٰكن العَرضَ والأُسلوب يعمد إلىٰ التدرُّج والمرحلية، فينادي بـ "تجديد الأساليب"، لا أكثر، ويطالِب بٱقتران العاطفة مع عرض المبادئ والمطالبة بالحركية، ولا تجد دَعْوَة صريحة مباشرة لِنَبْذ العاطفة وطَرْحها! وفي هـٰذا الدهاء يكمن الإضلال.

قد يحضرون مجالس العزاء، بل منهم من يُقيمها، وقد يبثون عبْر أثير إذاعتهم ووَسائلهم الإعلامية تسجيلات للمراثي والندبيات، ولـٰكنها خطوات علىٰ الطريق، ومرحلية وتكتيك فرضته طبيعة المعركة ومتطلبات الكرِّ والفرِّ... يُقدِمُون عليها بمنتهىٰ الحذَر والحيطة، ليَخرُجُوا بأقلِّ "خسائر" ممكنة، لذا يتمُّ ٱنتخاب المجالس والخطباء بما يخدم أفكارهم ومبادئهم، فتَجِد الخطيب منهم يرقىٰ المنبر فلا ينزل إلّا بالطعن في سيرة كربلاء، والتشكيك بوقائع عاشوراء، وبالنيل من الشعائر الحسينية، وبدل أن يُبكي الناس علىٰ مصاب «سيِّد الشهداء»، تراه يستهزئ بالبكاء والرثاء ويحرِّض مستمعيه علىٰ تركه. ومما يجدر ذكره في هـٰذه القضية خاصَّة، أنهم أقدموا في السبعينيات علىٰ خطوة متقدِّمة (حرقت المراحل)، كشفت حقيقة أهدافهم، عندما حوَّلوا مجالس العزاء في عشرة عاشوراء إلىٰ ندوات ومحاضرات (كما فعلت جمعيَّة الثقافة في الكويت، وجمعيَّة التوعية في البحرين، وجمعية المدارس المحسنية في دمشق، وٱتحاد الطلبة في لبنان)، وقلَبُوا "المواكب" وحوَّلوها إلىٰ مسيرات شموع (عُرِفت في العراق بمواكب "أنصار الحسين"، خرجت طليعتها من البصرة)... ولـٰكنهم ما لبثوا، أمام الموقف الصلب الذي واجهتهم به الجماهير، أن حكَّموا التكتيك وعادُوا إلىٰ المرحلِيَّة وتراجعوا، فقالوا: إن الساحة لم تنضج بعد!

لقد حاوَرْتُ ـ شخصيّاً ـ أحد "الدعاة" المتحمِّسين والمقرَّبين من إمام الضلال، وكان قد عادَ لِتَوِّه من زيارة العتبات المقدَّسة في «العراق»، فسألته عن الأمر وعمَّا تغيَّر في أفكاره، فقد كان حتىٰ الأمس القريب يحارب الزيارة ويستهزئ بها؟ فقال بملءِ فَمِه: "ماذا نفعل مع هٰذا الجهل المستحكم، إنهم يخرجوننا عن الدين، لا بُدَّ من غطاء، لا بُدَّ من حِفْظ الظاهر... ثم إنني قصدت المسجد الموجود في «النجف» وشدَدْتُ الرحال إليه لا إلىٰ القبر، فلا إشكال ولا محذور يتوجَّه إليَّ"!

ومن أخطر ما يمارسون من أساليب الاْلتفاف علىٰ الحقيقة، وطُرُق التحايل عليها، يأتي تركيزهم الغريب علىٰ القرآن الكريم، في الاْستدلال الفقهي والعقيدي وحتىٰ التحليل التاريخي، وإلغاء دَوْرِ الحديث والسُنَّة المعصومة بشكل مُبتَدَع لم يسبقهم إليه أي مذهب إسلامي! وتتركَّب الشبهة في ما يحاولون نسجه من رفض كلِّ ما يخالف الكتاب وضربه عرض الجدار، أما الحقيقة والواقع فهي أنهم يفسحون لأنفسهم الطريق أمام تفسيرهم الخاص للقرآن، ضمن قاعدة "الاْستيحاء"! ما يميِّعون به العقائد ويضربون به الفقه ويشوِّهون التاريخ!

حتىٰ غدا التجاسر علىٰ الأحاديث الشريفة والاْستخفاف بها، من أبرز سماتهم، وأخطر معالم مدرستهم... وتجد بعض ربائبهم يندفع بجرأة غريبة إلىٰ رفض ما تستدل وتحتج به عليه من أحاديث «الأئمة» عليهم السلام، فيقول: لا يمكنني أن أقبل هٰذه الروايات، وإن صحَّت سنداً، لأنها تخالف القرآن! ومَن الذي قال إنها تخالف القرآن؟!... لَعَمْري هل أُنزل القرآن عليكم وأنتم من خوطِبَ به حتىٰ تعرفوه حقَّ المعرفة!؟... حقاً إنه لمنهج يثير العجب ويبعث الحيرة، هل هٰؤلاء أشاعرة، أم معتزلة؟ أم هم خوارج ينادون: "حسبنا كتاب الله"؟

لست أدري، ولكني متأكِّد بأنهم ليسوا شيعة إمامية!

وقد نجحُوا في أساليبهم هذه وحقَّقوا غايتهم في قضيَّة التشكيك في ظلامات «الزهراء» عليها السلام، فقد أنزلوها من موقع البديهة التاريخية، والمسلَّمة العقيدية إلىٰ ما يجري عليه البحث ويتمُّ فيه التداول.

وجزىٰ الله من انبرىٰ للدفاع وردِّ الشبهات خيراً، فقد أوفوا الكيل وأجزلوا العطاء، حتىٰ انجابت السحُب وانقشعت الغيوم، ولم يتركوا فرجة تسمَحُ للمشككين بالنفوذ... ولكن بعض المحصِّلة النهائية، والغاية القريبة التي أرادها المشكِّكون قد تحقَّقت، وهي البحث في الموضوع وكسر القُدسيَّة من حوله!



❖ الأهتمام بخصائص الأئمة وصفاتهم

إذا كان الأهتمام بخصائص «المعصومين» عليهم السلام ترَفاً فِكريّاً، ولَغْواً لا طائل من ورائه، وهو ضربٌ من صرْف الوقت والجهد وهدره في ما لن نُسأل عنه، ولا يصحُّ الأنشغال به...

فلماذا إذاً هذا الكمُّ الهائل من الأحاديث التي تنقل وتتحدَّث لَنا عن هذه الأُمور، بما يتناول جزئياتها وتفاصيلها؟

تُرىٰ لماذا تحدَّثَ «الأئمة» عليهم السلام عن هذه الخصائص، بل عن حيثيَّات وجزئيات تتعدَّىٰ خصائصهم الذاتية وتتجاوزه إلىٰ المتاع، وفصَّلوا فيها بهذا القدر؟ هل كان «الإمام الباقر» عليه السلام يخوض (والعياذ بالله) في "علم لا يضرُّ مَن جهله ولا ينفع من علِمه" وهو يحدِّثنا أنَّ «رسول الله» صلى الله عليه وآله :

كان يلبس من القلانس اليمنيَّة والبيضاء والمضرَّبة ذات الأُذنين في الحرب،

وكانت له عَنَزة يتَّكِئ عليها ويخرجها في العيدين فيخطب بها،

وكانت له قضيب يقال له الممشوق،

وكان له فسطاط يُسمَّى ألكن،

وكانت له قصَعَة تُسمَّى المنبعة،

وكان له قعبٌ يُسمَّى الري،

وكان له فرَسان يُقال لأحدهما المرتجز وللآخر السكب،

وكان له بغلتان يقال لإحداهما دُلدُل وللأُخرىٰ الشهباء،

وكانت له ناقتان يقال لإحداهما العضباء وللأُخرىٰ الجدعاء،
وكان له سيفان يُقال لأحدهما ذوالفقار وللآخر العَوْن،
وكان له سيفان آخران يُقال لأحدهما المخذم وللآخر الرسوم،
وكان له حمار يُسمَّى يعفور،
وكانت له عمامة تُسمَّى السحاب،
وكان له درعٌ تُسمَّى ذات الفضول لها ثلاث حلقات فِضَّة: حلقة بين يديها، وحلقتان خلفها،
وكانت له راية تُسمَّى العقاب،
وكان له بعيرٌ يُحمل عليه يُقال له الديباج،
وكان له لواءٌ يُسمَّى المعلوم،
وكان له مغفر يُقال له الأسعد...". (١)

ما هٰذا الأسترسال والإطناب؟ ولماذا كلُّ هٰذه الدقَّة في سرد الحيثيّات، والحرص علىٰ تناول الجزئيات، والتفصيل في الخصوصيّات؟ لماذا هٰذا الأستغراق والإسهاب؟

ماذا يُقدِّم عِلمنا بأسم ناقة «النبيِّ» وماذا يؤخر جهلنا به!؟

هل لمعرفتنا بأسم عمامة «رسول الله» ﷺ أو سيْفه ولوائه، أو دابته والأدوات الشخصية التي يتناول فيها طعامه، أو الملابس التي يرتديها، أو أيِّ شيء مما راحت الرواية في سَرْده وتفصيله...

---

(١) 'بحار الأنوار' (ج١٦ ص٣٧).

هل من دَوْرٍ وتـأثير لـذلك كلِّه أو بعضه في عقيـدتنـا ومعـرفتنـا، وهـٰكذا في سلوكنا وعبادتنا، والمضي في ما سيسألنا عنه الله سبحانه وتعالىٰ؟ لِمَ إذاً حدَّثنا «الإمام الباقر» عليه السلام عن هـٰذه الأُمور؟!

وإذا كان الحديث عن بساطة معيشته صلى الله عليه وآله وزهده في الحياة وإعراضه عن حُطامها، ناهيك بزينتها، فهـٰذا له وَجْهٌ في القدوة والأُسوة، فتنحلُّ "إشكاليَّـة الحركيَّة" ! ولـٰكن الحديث هنا عن أسماء ومُسمَّيات، لا دَوْرَ لهـا في أُصـول الـدين ولا فـروعه، لا في عبـاداتنـا ولا مُعـاملاتنـا، لا بالسياسة ولا بالأقتصاد! فلماذا تطرحها مدرسة «أهل البيت» وتركِّز عليها، وتعطيها هـٰذا الحجم والدور الكبير؟ بـل حتىٰ تراث المخالفين تراه زاخراً بمثل هـٰذا.

لقد أحـصىٰ خاتمـة المحدِّثين الميرزا «حسين النوري» (صـاحب ‹المستدرك›) في كتابه "النجم الثاقب" وجـمَعَ من متون الروايات ما يقارب ثمانية وثلاثين أسماً لـ «الحجَّـة» عليه السلام، وذكـر مـا ينـاهز الخمسين رواية تناولت شمائله ووَصْفَه، وعَدَّ ستة وأربعين عنواناً تتضمَّن عشرات الأحـاديث التي أشتملت علىٰ بعض خصـائصه ومـا أمتاز به عن «الأنبياء» و«الأئمة» عليهم السلام... وهـٰكذا ذكَرَ صـاحب ‹مكيال المكارم› قدس سره عَشَرات الروايات وقد صنَّفها في تسعين مكرمة تترتَّب علىٰ الدعاء بتعجيل فرَجِ «المولىٰ» عليه السلام، وهـٰذه المكارم تغطِّي جميع حاجات الدنيا والآخرة، وتستوعب تمام الدين، وتشتمل علىٰ كمال النعمة، وتستغرق حياة المؤمن كلَّها، طولاً وعرضاً...

هـٰذا فضلاً عن الآيات القرآنية التي يقع «الحجَّة» عليه السلام جواباً وتفسيراً أو تأويلاً لها، والمعاجز والكرامات التي صدَرَت عنه، ومئات القصص والحكايات حول مشاهدته ولقائه عليه السلام...

ماذا وراء سرد هذه الأُمور وتداولها؟

تُرىٰ لماذا هذا الحرص والعناية من «رسول الله» صلى الله عليه وآله و«الأئمة الأطهار» عليهم السلام بِخَلَفِهم «الحجَّة بن الحسن العسكري» عليه السلام؟ ماذا يعني هذا الحجم الهائل، والكمِّ الكبير من الأحاديث التي تتناول شخصَه وشخصيَّته، وتتوغَّل في ذِكر حالاته وأوْصَافه وشمائله وخِصَالِه؟

أليس لهذه الأحاديث موضوعيَّة تكشف عن قيمة الأمر وأهميته وخَطَرِه؟ أليست الكميَّة والحجم، والعناية والحرص، تكشف عن اتجاه الشارع المقدَّس ورغبته وحثِّه علىٰ الأخذ بها والتركيز عليها؟

ألا يعني هذا أن لها شأنية قائمة بذاتها لا يجوز إغفالها وإهمالها؟

ألا ترىٰ أنَّ هذه الأحاديث وهذا الحرص والعناية يبين لنا نمط التواصل ولغة الارتباط بـ «إمام زماننا» عليه السلام، وأنها مشروعُ وخطَّة العلاقة به والتفاعل معه، وهي تكلِّم القلوب كما تخاطب العقول، وتزرع العاطفة كما تنمي الوعي، وتضرب علىٰ وَتَرِ الحبِّ والعِشْق والولاء كما تنادي بالاتباع والعمل والطاعة؟



❖ في العشق والحب

لماذا تتناول الأحاديث الشريفة حالاتهم وسجاياهُم، وتذكر شمائلهم وصفاتهم وتركِّز على مميزاتهم وخصوصيّاتهم؟

من أين انطلقت هذه الأحاديث، وماذا كانت تحاكي، وماذا تريد، وإلىٰ أي شيء تَهْدِف؟

لماذا نحُوم حوْل ديارهم؟ ونتمسح بآثارهم ونلثم أعتابهم؟ لماذا نَشدُّ الرحال إلىٰ مراقدهم؟ لماذا نُقيم المجالس لِذكراهُم، وننشد الأشعار في رثائهم ونتغنَّى بالقصائد في مدائحهم؟ لماذا نحزن في أحزانهم ونفرح في أفراحهم؟ لماذا نحبُّ محبيهم ونبغض أعداءهم ولا نطيقهم؟ لماذا ننتشي طرَباً عندما نسمع فضائلهم وكراماتهم...؟

لِنركِّز الفكر في نبرة الأحاديث ولحن إطلاقها، لنتمعَّن في أجواء هذه النصوص المقدَّسة، ولنكسِر أقفال القلوب ونجعلها تنفتح على الحقيقة وتتفاعل معها، عسىٰ أن يأخذها المظهر إلىٰ الجوْهَر، ويقودُها الظاهر إلىٰ الباطن وهي تتدبَّر في هذا النور المسمَّى بالكلام والحديث!...

يقول «النبيُّ الأعظم» ﷺ: "بأبي وأُمّي، سميِّي وشبيهي، وشبيه «موسىٰ بن عمران»" [1]. ويقول «أميرالمؤمنين» عليه السلام: "بأبي ابن خيرة الإماء" [2]... "هاه ـ وأومَأ بيده إلىٰ صدره ـ شوقاً إلىٰ رؤيته" [3]، "آه آه شوقاً إلىٰ رؤيتهم" [4].

---

(١) (كفاية الأثر) (ص ١٥٨).

(٢) (غيبة النعماني) (ص ٢٢٨ ح ٩ و١١)، وتجده أيضاً في (إرشاد المفيد) (ص ٤١٠)، و(غيبة الطوسي) (ص ٢٨١).

(٣) (غيبة النعماني) (ص ٢١٤).

(٤) (كمال الدين) (ص ٢٩١).

ويقول «الإمام محمد الباقر» عليه السلام: "... أما إني لو أدركتُ ذلك لأستبقيت نفسي لِصاحِبِ هذا الأمر".[1] "بأبي وأُمّي المسمّى بٱسمي، والمكنّى بكُنيتي، السابع من بعدي، بأبي مَن يملأُ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجَوْراً".[2]

ويقول «الإمام جعفر الصادق» عليه السلام: "... ولو أدركته لخدمته أيام حياتي".[3] "سيّدي! غيبتك أوصَلَت مصابي بفجائع الأبد".[4]

ويقول «الإمام موسى الكاظم» عليه السلام: "بأبي المنبدح البطن... بأبي مَن ليله يرعى النجوم ساجداً وراكعاً، بأبي مَن لا تأخذه في الله لومة لائم، بأبي القائم بأمر الله".[5] ويقول «الإمام عليّ الرِّضا» عليه السلام: "بأبي وأُمّي سمِيُّ جدّي صلى الله عليه وآله وشبيهي وشبيه «موسى بن عمران»".[6]

ما بالُ هؤلاء العظماء، الذين تندكُّ الجبال فلا تطيق، وتتصدَّع وتأبى أن تحتمل، ويصعَقُ الأنبياء ويخِرُّون، وهُمْ في الطمأنينة مُستغرِقُون، وفي السلام يرفلون، يتلقون الأمانة من ربِّهم بوقار، وينهضون بها ويبلِّغون رسالته إلى خلقه حافظين الذِّمار، ويعرجون إلى سدرة المنتهى، ويبلغون قابَ قوسين أو أدنى، وما يعتريهم ٱضطرابٌ، ولا ينالهم أدنى توجُّس وخِيفَة...

---

(١) ‹غيبة النعماني› (ص ٢٧٣ ح ٥٠).

(٢) المصدر السابق (ص ٨٦ ح ١٧).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٤٥ ح ٤٦).

(٤) ‹غيبة الطوسي› (ص ٢٩١)، وتجده أيضاً في ‹كمال الدين› (ص ٣٥٢ ح ٥١).

(٥) ‹فلاح السائل› لـ «السيد بن طاووس» (ص ٢٠٠).

(٦) ‹دلائل الإمامة› لـ «الطبري» (الإمامي، لا المؤرِّخ) (ص ٢٤٥)، وتجده أيضاً في ‹كمال الدين› (ص٣٧٠ ح٣)، و‹عيون أخبار الرضا› (ج ٢ ص ٦ ح ١٤).

ما بالهم هنا في حال أُخرىٰ لم نعهَدْها فيهم؟

فقد رأيناهم وقد هُجِّروا عن الأوطان، وشُرِّدوا في البلدان، وفارقُوا الأهل والخلّان، وارْتُهنوا في السجون، وجُرِّعوا السموم، حتىٰ قتِّلُوا وعَدَتْ عليهم الخيل بسنابكها!... وما رأينا منهم مثل هٰذه الكلمات والنداءات والتأوُّهات؟! بل وَجَدْناهُم يشكرون الله ويحمدونه أن فرَّغَهم لِعبادته، وإن في ظُلَمِ المطامير وقعْر السجون، وساق رُضَّت بحَلَقِ القيود، وينشدون للقائه سبحانه وتعالىٰ: "فلو قطعتني في الحبِّ إرباً، لما حنَّ الفؤاد إلىٰ سواك"، ويلهجون بالرِّضا، بما صكَّ سمعَ الملكوت: "اللهم تقبل مِنَّا هٰذا القربان"...

إنها هنا حالة نفسيَّة ومنزلة روحيَّة، ليست من جنس المعراج ولا العروج، ولا من سنخِيَّة تلقِّي الوحي وتحمُّل الأمانة، ولا من نوع النهوض بالمسؤولية وتبليغ الرسالة، ولا هي من نتائج ذلك كلِّه ولَوَازمه، ولا من أُعطياته وتداعياته، كالبلاء والمعاناة في هٰذا الطريق، والأذىٰ والمحنة في ذلك السبيل. نعم سمعناه ـ ﷺ ـ يقول: "شيَّبتني سورة هود"[1] عندما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ عليه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴿١١٢﴾﴾ (هود)، ويقول: "فما نزدادُ علىٰ كلِّ مُصيبة وشِدَّة إلّا إيماناً، ومُضِيّاً علىٰ الحقِّ، وتسليماً للأمر، وصَبراً علىٰ مَضَضِ الجراح"...[2]

ولٰكن هٰذه الحرقة والشوق، والزفرات والتأوُّهات المبثوثة هنا، واللغة والخطاب الذي تراه في هٰذه الأجواء... هي من مقولة أُخرىٰ، وتحكمها طبيعة مختلفة!

---

(١) انظر: (تفسير الصافي) لـ «الفيض الكاشاني» (ج٢ ص٤٥٧).

(٢) (بحار الأنوار) لـ «العلامة المجلسي» (ج٣٣ ص٣٦٨ ح٦٠٠).

إنهم هنا يفدُّون: "بأبي وأُمِّي"، ويتغزَّلون: "شبيهي وشبيه أبي وشبيه «موسى بن عمران»، المنبدح البطن..."، ويترنَّمُون جذلاً: "سميِّي، وكنيته كنيتي و..."، إنهم يتأوهون ويئنُّون شوقاً: "آه آه شوقاً إلىٰ رؤيته"... ولست أدري لم وضَعَ «أميرالمؤمنين» ﷺ يدَه علىٰ صدره وهو يتأوَّه لِذِكْر «المهديِّ» ﷺ؟ هل كان يشير إلىٰ قلبه موْطن حبيبه؟ أم تراه حذر أن ينخلع فؤاده، وتنسلَّ روحه في غير أوان نزعها، فأراد تسكينها، وأمرها أن تقرَّ؟!

إنهم يجولون في آفاقه وحالاته: "يرعىٰ النجوم، لا تأخذه في الله لوْمة، يملأ الأرض عدلاً"...

تعالوا لِنغوص قليلاً ونسبر بعض العمق، بعيداً عن السطحية والقشور، وٱبتذال العلم، ونبذ الدراية، وهتك الفن، الذي سنَّه هٰؤلاء الجهلة بحزبهم الأجوف، وأدائهم الأخرق، ومشروعهم وخطَّتهم الشيطانية، فما طابَ ولا غَزُر، بل خبُثَ ونَزُر...

تعالوا نخلُو بـ «عليٍّ» وننأىٰ به بعيداً عن هٰذا الملعون الذي يسأله عن عدَدِ شعرات لحيته الخبيثة، وعن كلِّ نظير له ممن يعيش بين ظهرانينا، وإن ٱنتَسَبَ إلينا وٱنتَحَل هويَّتنا. صَلِفٌ نَطِف، وجَلْفٌ وَقح، خبُثَت سريرته، وفجَرَت طوِيَّته، فما خمدت حسيكةُ النفاق والفتنة في جَوْفه، حتىٰ بثَّ ذلك في المسلمين، وعمَّ به المؤمنين.

عِلجٌ ما تذوَّق الجمال مرَّة لِيَعرِفَ آياته، وساقطٌ ما حاكىٰ الروح لحظَة ليعرف الروحانيَّة، ودنيءٌ لم يبحث عن الكمال يوماً ليعشق تجلياته... جمدَ علىٰ الحسِّ والمادَّة والأهواء، وراح يبحث عن أسرار الخلق والغيْب والدين في ألاعيب السياسة وقياسات الرياضة، ومقتَضيات الظهور الإعلامي والإمرة والشهرة!

دعونـا من هـٰؤلاء، وهلمُّـوا لننفردَ بـ «عليٍّ» ونصحبه مع «كميل بن زياد» في جولة بين نخيل غرَسَها بيده الشريفة. تعالوا لِنَشهَدَ ونُلقِي مسامع القُلوب في قليب بِظَهرِ «الكوفة» كان يخرج إليه «عليٌّ» ليلاً ويُناجيه، ونستنطق دَلْوَ تلك البئر ورَشَاها، وكلَّ لَبِنَة وحجَرة تماسكت مع الأُخرىٰ في جدارها... لعلَّنا نجد ضالَّتنا هناك!

تعالوا نستجلي الأمر من «زُرارة» و«أُوَيْس» و«أبي بصير»...

تعالوا لِنعيش قليلاً في أجواء عاشها «علي بن إبراهيم بن مهزيار» عمره كلَّه، فحجَّ عشرين حِجَّة بحثاً عن «المولىٰ» علَّه يلتقيه، فلقيه!

ولنسمع القصَّة منه وهو يحدِّث قائلاً:

حجَجْتُ عشرين حِجَّة كُلاً أطلب به عيان «الإمام»، فلم أجد إلىٰ ذلك سبيلاً...

وبينا أنا نائم ليلَة في مرقدي، إذ رأيت في ما يرىٰ النائم قائلاً يقول لي: حِج هٰذه السنة، فإنك تلقىٰ صاحب زمانك. فأنتبهت فرحاً مسروراً فما زِلتُ في صلاتي حتىٰ أنفجر عمود الصبح وفرغت من صلاتي وخرجت أسأل عن الحاج، فوجدت رفقة تريد الخروج، فبادرت مع أوَّل مَن خرج.

فما زلت كذلك حتىٰ خرجوا وخرجت بخروجهم أُريد «الكوفة».

فلما وافيتها نزلت عن راحلتي وسلَّمت رحلي إلىٰ ثقات إخواني، وخَرَجْتُ أسأل عن آل «أبي محمد»، فما زلت كذلك، فلم أجد أثراً ولا سمعت خبراً، وخَرَجْتُ في أوَّل مَن خرَج أُريد «المدينة».

فلما دخلتُها لم أتمالك أن نزلت عن راحلتي، وسلَّمت رحلي إلىٰ ثقات إخواني وخَرَجْتُ أسأل عن الخبر وأقفُو الأثر، فلا خبراً سمعت ولا أثراً وَجَدْت.

فلم أزل كذلك إلىٰ أن نفر الناس إلىٰ «مكَّة» وخَرَجْتُ مع مَن خرَج، حتىٰ وافيت «مكَّة» ونزلت وٱستوثقت من رَحْلي، وخَرَجْتُ أسأل عن آل «أبي محمد»، فلم أسمع خبراً ولا وَجَدْتُ أثراً.

فما زلت بين الإياس والرجاء متفكِّراً في أمري وعاتِباً علىٰ نفسي، وقد جَنَّ الليل وأردتُ أن يخلو لي وَجْه الكعبة لأطوف بها وأسأل الله أن يعرِّفني أملي فيها.

فبينا أنا كذلك وقد خلا لي وَجْهُ الكعبة، إذ قمتُ إلىٰ الطواف، فإذا أنا بفتىً مليح الوَجْه، طيِّب الروح، مُترِدٍ بِبُرْدَة ومتَّشح بأُخرىٰ، وقد عطَفَ بردائه علىٰ عاتقه، فحركته فٱلتفت إليَّ فقال:

ممن الرجُل؟ فقلت: من «الأهواز».

فقال: أتعرف بها «ٱبن الخصيبي»؟

فقلت: رحمه الله دُعِيَ فأجاب.

فقال: رحمه الله، لقد كان بالنهار صائماً وبالليل قائماً وللقرآن تالياً ولَنا موالياً. أتعرف «عليَّ بن مهزيار»؟

فقلت: أنا «عليُّ بن مهزيار»!

فقال: حيَّاك الله بالسلام «أبا الحسن».

ثم صافحني وعانقني، ثم قال: ما الذي تريد يا «أبا الحسن»؟

قلت: «الإمام» المحجوب عن العالم.

قال: وما هو محجوبٌ عنكم، ولكن خبأه سوءُ أعمالكم، قُم سِرْ إلىٰ رَحْلِك، وكُن علىٰ أُهبَة من لِقائه، إذا ٱنحطَّت الجوزاء، وأزهرت نجوم السماء، فها أنا لك بين الركن والصفا.

فطابَتْ نفسي وتيقَّنتُ أنَّ الله فضَّلَني. فما زلت أرقب الوقت حتىٰ حان، وخرجت إلىٰ مَطِيَّتي وٱستويتُ علىٰ ظهرها، فإذا أنا بصاحبي

ينادي إليَّ يا «أبا الحسن»، فخرجت فلحقت به، فحيَّاني بالسلام وقال: سِرْ بنا يا أخ. فما زال يهبط وادِياً ويرقىٰ ذُرْوَة جبل إلىٰ أن علقنا علىٰ «الطائف»، فقال: يا «أبا الحسن» إنزل بنا نصلي باقي صلاة الليل. فنزلت فصلىٰ بنا الفجر ركعتين، قلت: فالركعتين الأوليين؟ قال: هما من صلاة الليل، وأوتر فيها، والقنوت في كلِّ صلاة جائز.

وقال : سِرْ بنا يا أخ.

فلم يزل يهبط بي وادِياً ويرقىٰ بي ذُرْوة جبل حتىٰ أشرفنا علىٰ وادٍ عظيم مثل الكافور، قال: ألمح، هل ترىٰ شيئاً؟ فلمحت فرأيت بقعة نَزِهَة كثيرة العشب والكلأ.

فقلت: يا سيدي، أرىٰ بقعة كثيرة العشب والكلأ، فقال لي: هل في أعلاها شيء؟ فلمحت، فإذا أنا بكثيب رمل فوقه بيت من شعر يتوقَّد نوراً. فقال: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: أرىٰ كذا وكذا... فقال: طِبْ نفساً يا «ابن مهزيار» وقَرَّ عيناً، فإنَّ هناك أَمَل كلِّ مُؤمِّل.

وانحطَّ في الوادي، وأتبعت الأثر، حتىٰ صِرنا بوسط الوادي، نزلَ عن راحلته وخلَّاها، ونزلت عن مطيَّتي، وقال لي: دَعْها، قلت: فإن تاهَتْ؟ قال: إنَّ هذا وادٍ لا يدخله إلّا مؤمن، ولا يخرج منه إلّا مؤمن.

ثم سبقني وقال لي: هناك حتىٰ يؤذن لك. ودخل الخباء، وخرج إليَّ مُسرِعاً وقال: أبشِر، فقد أُذن لك في الدخول.

فدخلت عليه صلوات الله عليه، فإذا البيت يسطَعُ من جانبه النور، فسلَّمت عليه بالإمامة، فقال لي:

يا «أبا الحسن» قد كنا نتوقَّعك ليلاً ونهاراً، فما الذي أبطأ بك علينا؟!

قلت: يا سيدي، لم أجِد مَن يدلَّني إلىٰ الآن.

قال: لم تجد أحداً يدلُّك؟!
ثم نكَتَ بإصبعه في الأرض، ثم قال: لا، ولكنكم كثَّرتم الأموال، وتجبَّرتم على ضعفاء المؤمنين، وقطعتُم الرَّحم الذي بينكم، فأيُّ عُذْرٍ لكُم الآن؟ فقلت: التوبة التوبة، الإقالة الإقالة.
ثم قال: يا «ابن مهزيار» لولا استغفار بعضكم لبعض، لهلك مَن عليها إلّا خواصُّ الشيعة التي تشبه أقوالهم أفعالهم.[1]

ما هذه الروح المهيمنة على «ابن مهزيار»، وما هذا السلطان القاهر الذي جعله يصرف عُمْرَه في سبيل "لقاء"؟!

إنها رحاب الحبِّ وآفاق العشق، إنها لواعج الغرام، وأسرار الهوى، إنها الصبابة واللوعة... ولا تسأل عنها إلّا أهلها!

ولنبدأ بعيداً عن العشق الإلهي وصورته العَمَلِيَّة، أي حبُّ «أهل البيت» عليهم السلام، لنبدأ من مادَّته الأوَّلية وخطواته الأُولى، مما يُسمّى بالمحبَّة الطبيعية، ولننظر إلى الحب مجرَّداً عن المحب والحبيب...

❖ ❖ ❖

(١) النصُّ هنا جمع بين روايتين سرَدَتا القصَّة نفسها، الأُولى في ‹البحار› (ج٥٢ ص٩ ح٦)، والثانية في ‹مدينة المعاجز› لـ «السيد هاشم البحراني» (ج٥ ص١١٥).

❖ ما هو الحبُّ؟

يقولون: إنه سرٌّ إلهيٌّ أَبَدِيٌّ عالٍ على الزمان... إنه تلك النجمة الوضَّاءة التي تضيء السبيل أمام كلِّ زوْرَق تائه. هو تلك اللؤلؤة الفريدة التي تسطعُ بين سائر الأنفعالات البشرية.

ويقولون: إنه قوَّة كونية كُبرىٰ، لأنَّه هو الذي يُحرِّك الشمس وباقي الأجرام السماوية! وهو يتجاوز الإنسان إلىٰ النبات والحيوان والجماد، بل يتجاوز الحياة البشرية إلىٰ الكَوْن الواسع، حتىٰ نلحظه في ما بين أفراد الجنِّ، وبين الكواكب، وبين السماء والأرض... فهٰذا التجاذب بين الكواكب والأفلاك والأجرام، وهٰذا الأنتظام في المدارات والأبراج، يعود إلىٰ تلك الحقيقة.

وكم قالوا وأعادوا... وكم أبدع «جبران خليل جبران» حين قال مُستلهِماً من "العهد الجديد":

المحبَّة تضمُّكم إلىٰ قلبها كأغمارِ حِنْطَة، وتدرُسُكم علىٰ بيادرها لِكَيْ تُظهِر عُرْيَكم، وتغربلُكُم لِكَيْ تحرِّركُم من قشورِكُم، وتطحنكُم فتجعلُكُم كالثلج أنقياء، وتعجنكُم بدموعكُم حتىٰ تلِينُوا، ثم تُعدُّكُم لِنارِها المقدَّسة، لِكَيْ تصيروا خُبزاً مقدَّساً يُقرَّبُ علىٰ مائدة الربِّ المقدَّسة. المحبَّة لا تعطي إلّا نفسَها، ولا تأخذ إلّا من نفسِها، المحبَّة لا تملك شيئاً ولا تريد لأحدٍ أن يملِكَها، لأنَّ المحبَّة مُكتفِيَةٌ بالمحبَّة...

كما كتب "العهد القديم" (التوراة) قصَّة البشريَّة بأكمَلِها بعبارات الحبِّ، فقد جاء فيه:

إنَّ الله نفخَ في الطين أنفاس الحبِّ فخُلِقَ
الإنسان... سأقول لك لماذا تمضي السماوات في
حركتها الدائريَّة؟ ذلك أنَّ عرشَ الله يملؤُها
بانعكاسات الحبِّ. ولماذا تهبُّ نسائم الصباح؟
لأنها تريد أن تبعَثَ بالأوراق النائمة، على
شجيرات وَرْد الحبِّ. ولماذا يتَّشِحُ الليل
بغلائِله؟ ذلك أنَّه يدعو الناسَ إلى الصلاة في
مخدع الحبِّ...

وقد قسَّمه «الثعالبيُّ» وصنَّف درجاته فقال:

أوَّله الهوى، وهو ميْل النفس، ثم التعلُّق، وهو الحبُّ اللازم للقلب، ثم الكَلَف، وهو شِدَّة الحبِّ، ثم العِشْقُ، وهو إعجابُ المحبِّ بمَحبُوبه أو إفراطُ الحبِّ، ثمَّ الشَّغَفُ، وهو أن يلذَع الحبُّ شِغَافَ القلب، أي غلافه، ثم الجوَى، وهو الحرقة وشدَّةُ الوَجْد، ثم التتَيُّم، فيُقال مُتيَّمٌ، وهو من استعبَدَه الحبُّ، ثم التَبْل، وهو أن يَسقِمَه الهوى، ثم التدَلُّه، وهو ذِهابُ العقل من الهوى، ثمَّ الهُيام، أن يذهب على وَجْهه لغلَبَة الهوى عليه.

لا أُريد أن أستخبر الأمر من «قيس» و«ليلى»، و«جميل» و«بُثينة»، و«دَعْد» و«رافع»، و«وامِق» و«عذراء»، و«بِشْر» و«هند»... إذ لن يأتني إلّا رَذاذ، وغيْضٌ من فَيْض. ولن أسأل حتى «رابِعَة العَدَويَّة» و«بِشْراً الحافي»، و«أبا يزيد البسطامي» و«أبا القاسم الجنيد»، و«ذا النون المصري»... فأنا لم أعرف هؤلاء على حقيقتهم، ولم أتعرَّف واقع أحوالهم، ولا أدري مَن هو حبيبهم الذي طالما تغزَّلوا به، وهامُوا على الوجوه في البراري شَوْقاً إليه؟

وما أقولُ فيهم إلّا أنّهم لَيْسُوا على نهجِنا ولا من مدرستنا... فنحنُ لم نسمع لجناح "البراءة والتبري" في هٰذه الأرواح السابحة المحلِّقة خفْقاً، كما سمعنا رفيف "الولاية والتولّي" فيها؟ وهل يحسُن السبحُ والتحليق بجناح واحِد؟ هل يمكن السير والسلوك والعروج والٱرتقاء بقَدَم عرجاء؟!

ثم أيُّ "ولاية" هي؟

إنها عندهم ولاية "الكامل"، و"الكمال" الذي يتطلَّبه مقام الولاية في رأيهم، إثباتاً وثبوتاً، غير محصور في «الأئمة» من «آل محمد» عليهم السلام، بل هي مُشاع لكُلِّ ساعٍ وسالك، ومبذول لكلِّ طالِب وراغِب... ما يعني أنها شِرْعَةٌ لِكُلِّ وارِد! وشتَّان بين رأيهم ومعتقدنا، الذاهب إلىٰ تعلُّق الإرادة الربَّانية بٱجتباء الأنوار الأربعة عشر، علىٰ نحو الحصر والتعيين، وهو مما لا يكون إلّا لِسابق فضل وٱستحقاق عِلمَه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في هٰذه الأنوار، لن يكون في غَيْرهم!

فدَعْهُم ومَن يعشَقُون، وهلمَّ إلىٰ مَن نعرِف!...

نحن نعرِفُ عشَّاق «الحسين»، الذين كانوا يُسارِعُون ويتدافعون إلىٰ الموت بين يديه في «كربلاء» كأنما قيل فيهم:

لبسوا القلوب علىٰ الدروع كأنهم
يتهافتون علىٰ ذهاب الأنفس

نعرف: «عابِس بن أبي شبيب الشاكري» الذي وَقَفَ أمام حبيبه، يريد الإذن للبراز قائلاً:

"يا «أبا عبدالله»، والله ما أمسىٰ علىٰ ظهر الأرض قريبٌ ولا بعيد أعزَّ عليَّ ولا أحبَّ إليَّ منك، ولو قدرتُ علىٰ أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيءٍ أعزُّ من نفسي ودَمي لَفَعَلت".

ونعرِف «عمرو بن قرظة الأنصاري» الذي وَقَفَ أمام معشوقه يقيه بنفسه، ويتلقىٰ السهام عنه بصدرِه ووَجْهه!

ونعرف «أنس بن الحرث الكاهلي»، وكان شيخاً كبيراً، وصحابيّاً ممن رأىٰ «النبي» ﷺ وشَهِدَ معه بدراً وحنيناً، إذ برز شادّاً وسَطَهُ بالعمامة، رافعاً حاجبيه عن عينيه بالعِصَابة، فلما نظرَ إليه «الحسين» عليه السلام بهذه الهيئة، بكىٰ، وقال: "شكر الله سعيك يا شيخ".

و«الجابريين» («سيف بن الحارث الجابري» و«مالك بن عبد الجابري» وهما ٱبنا عمٍّ، وأخوان لأُمٍّ واحدة) اللذين جعلا في يوم الطفِّ يبكيان، فقال لهما «سيِّد الشهداء» عليه السلام: ما يبكيكما، فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري العين. فقالا: جُعِلنا فداك، والله ما علىٰ أنفسنا نبكي ولٰكننا نبكي عليك، نراك قد أُحيط بك، ولا نقدر أن ندفعَ عنك ونمنعك![1] نعرف «همَّاماً» الذي صعقته موعظَة مولاه، فوقع صريعاً من فوره! ونعرف التمَّار «ميثماً»، الذي نبَّأه حبيبه بالنخلة التي سيُصلب عليها، فصارَ يتعاهدُها بالسقي والرعاية، ويأتيها فيصلي عندها ويقول: "بوركْتِ من نخلَة، لكِ خُلِقتُ، ولي غُذيت"![2]

و«حجْر بن عَدِيٍّ» الذي قضىٰ علىٰ مذبح العشق صبراً، رافضاً أن يتبرأ من حبيبه «أميرالمؤمنين»، ذلك بعد أن ساق ٱبنه هَدْياً بين يديه، وأرسله أُضحية أمامه إلىٰ الجنان، حذراً أن يسقط في الٱمتحان، ولا ينجو من الٱبتلاء، فيضعُف (ويتبرَّأ من «عليٍّ») إن هو نظر مصرع أبيه!

---

(١) انظر: (مقتل أبي مخنف)، و(اللهوف) لـ «السيد بن طاووس»، و(واقعة الطفِّ) لـ «السيد محمد تقي بحرالعلوم».

(٢) (الكنىٰ والألقاب) لـ «الشيخ عباس القمي» (ج ٣ ص ٢١٧).

ونعرف الشيخ الذي بشَّره «رسول الله» ﷺ قائلاً: "آخر زادك ضَياحٌ من لَبَن" فبرز في «صفين» في صفِّ الفرقة الناجية... «عمار بن ياسر» فقاتل حتىٰ قضىٰ شهيداً، فاْحتمله حبيبه - عليه السلام - خارج الميدان، وأدخَلَه خيمته، ووَضَعَ رأسه في حِجْرِهِ، وأخذ يمسح الدَّم عن وَجْهِه ولحيته، وينشد متغزلاً:

وما ظبيةٌ تسبي الظباء بطَرفِها
إذا اْنبعثت خِلْتَ بأجفانها سِحْرا
بأجملَ ممَّن خضَّبَ السيفُ وجهَهُ
دماً في سبيل الله حتىٰ قضىٰ صبرا [1]

فلنعُد إلىٰ الحب...

ولَعَمْري، هل نملك تركه لِيَصدُق أننا نعود؟:

إنه تفجُّر الفيض الإلهي، وتشعشُع النور الرَّباني الذي سرَىٰ في كلِّ الموجُودات، من جماد وحجَر وشجَر وحيوان وإنسان، ونفذ في كلِّ شيء، بل خلع عليه وأكسبه الوجود.

وكلَّما كانت مرآة اْستقبال هٰذا النور أكثر صفاءً ونقاءً، ووِعَاء تلقِّيه أعظم هِمَّة وسِعَة، اْستوعبت النفس كمّاً أكبر من هٰذه الطاقة الروحيَّة، وتلقَّت فيضاً أعمَّ من هذا النور المتألِّق، وجاءها من السراج مزيدٌ من الإضاءة والإصباح، وهٰكذا كلَّما كانت أكثر صقلاً، كانت أكثر اْنعكاساً وحركة في فضائه! ويقولون إنَّ المرآة هنا هي القلب، فهو موطن الحبِّ ومركز العشق، والوعاء الذي يتلقَّاه ويبثُّه، وسَمِّه إن شئت موضع أو مقام تعلُّق الروح بالبدن، واْرتباط المجرَّد بالحسِّ...

(١) «الكنىٰ والألقاب» لـ «الشيخ عباس القمي» (ج ١ ص ١٨٧).

إنه التـآلف والتجاذب الذي يجعل النفـس حين آستقبال هـٰذا النور وتلقِّيه، حين بثِّه وإرساله، تندفعُ إلىٰ الأصل الذي صدَرَ عنه، وتنجذِبُ إلىٰ المصباح الـذي شعَّ منه، أو إلىٰ كلِّ وُجُود ترشَّح فيه هـٰذا النور وتسرَّب إليه وسرَىٰ فيه، وصارَ يتلألأ علىٰ صفَحَاته، يبرُقُ ويخطَفُ الأبصار... فتهفو إليه النظائر وتسعىٰ، وتسرع الخطىٰ، كظمآن يبحث عمَّا يبرِّد غليله ويسكِّن عطَشَه.

إنه الشحنة التي تملأ النفس طاقة الحياة، وتدفعه صوب مستلزماتها ومتطلَّباتها، إنه الطاقة المحركة للروح...

ها أنا أحومُ فأعود من حيث آبتدأت، فكأني في دائرة مغلقة!

لَعَمْري، هل عرَّفوا الكهرباء؟

يقولون: سيلٌ مُتدَفِّقٌ من الإلكترونات. ثم ماذا؟

هل هـٰذه هي حقيقة الكهرباء؟

كيف هو هـٰذا السيل، وكيف هو التدفُّق، وما هي الإلكترونات؟... إنهم يحومون ويدورون، ليعودوا من حيث بدأوا! وعندما تعيىٰ حيلتهم وتعجز وَسِيلتهم، يلجأون إلىٰ الآثار، فيقولون آنظر إلىٰ المصباح كيف أضاء عندما آتصل بهـٰذا السلك، وتوهَّجَ حين سرىٰ إليه ما في هـٰذا الشريط، إنَّ ما أضاءه هو الكهرباء...

وهـٰكذا الحبُّ: فهو وإن كان أمراً خفيّاً قلبياً، وشيئاً كامناً باطِنيّاً، وحقيقة مُضمَرة نفسيَّة، ولـٰكنه يُعرفُ بآثاره الظاهرة، وفرُوعه المتكاثرة، وعطاياه الوفيرة، فهو كشجرة أغصان، ولكلِّ غصن من الورد أفنان، فبعض آثاره تظهر في اللسان، وأُخرىٰ في سائر جوارح الإنسان، فكما لا يمكن منع الشجر عن نمو وَرَقه، وتفتُّح زَهْرِه، لا يمكن منع ذي الحبِّ عن ظهور آثاره.

إنه ما يصيبُ المسافر عند الوداع والفراق، وما يعتري المهاجر الغريب عندما يبرق في خاطره طيفُ الأهل والوطن...

ٱنظر كيف هفا هٰذا الشاب وٱنتشىٰ وطَرِبَ عندما رأىٰ أو التقىٰ هٰذه الفتاة!

ٱنظر كيف يتصابىٰ هٰذا الرجل ليُلاعب صغيره، وكيف صار - وهو الوقُور - يتمثَّل دابة تمشي علىٰ أربع ليعتليه ٱبنه أو سِبْطه!

ٱنظر كيف تحتضن الأُم طفلها، وتطوِّقه بذراعيها، لتحميه وتقيه، وتتلقىٰ الخطر عنه، وتفديه بنفسها...

وفي رتبة أعلىٰ ومستوىً ودرجة أرقىٰ:

ٱنظر إلىٰ نحول الجسم وذبوله، ٱنظر إلىٰ إسبال الدموع وهجران الهجوع، ٱنظر إلىٰ هٰذه القريحة كيف جادَت وسطَرَت هٰذا النثر ونظمت ذاك الشعر!

ما الذي فعل فيها هٰذا الفعل؟

ما الذي سحَرَها فصاغَت هٰذا البيان؟

ٱنظر كيف يلهج اللسان ولا يكاد ينقطع عن ذكْر شيء واحد لا غيره، أو شخص بعينه دون سواه، تعديد أوْصافه وشمائله، ومدْحُ سجاياه والثناء علىٰ خِصاله، فإذا زال المقتضي، وٱنصرف المقام، ٱنظر إلىٰ الجهد في إرجاع الحديث ليعود ويتناول شيئاً فيه!... و "مكتوبٌ في التوراة التي لم تغيَّر، أنَّ «موسىٰ» عليه السلام سأل ربَّه فقال: إلهي إنَّه يأتي عليَّ مجالس أُعزُّكَ وأُجِلُّك أن أذكُرك فيها، فقال: يا «موسىٰ» إنَّ ذكري حَسَنٌ علىٰ كلِّ حال" .[1]

---

(١) «الكافي الشريف» لـ «الشيخ الكليني» (ج ٢ ص ٤٩٧).

أنظر إلىٰ دموع علىٰ الخدود، وصفرة الوَجْه، إلىٰ السهاد وجَفوة الرقاد والكرىٰ، إلىٰ قِلَّة الطعام وطَيْش اللُّب، إلىٰ الشرود...

فتعرف ما هو الحبُّ، وتقف علىٰ بعض حقيقته.



❖ دور الحبِّ وموقعه في قضيتنا

وبعد أن تعرَّفنا الحبِّ والعشق، لنرىٰ أين ٱرتباطه وعلاقته، وما هو موقعه في قضيتنا؟

تعالوا لننظر في بعض الظواهر الاجتماعية ونتدبَّر فيها:

ما الذي يجعل شخصاً ينذر نفسه وحياته للحشرات أو الفَراش؟! فيتخصَّص في عِلم الأحياء، ويقضي ليله ونهاره في المختبرات، أو في الحدائق يتابع فيها أبحاثه، ويدوِّن موسوعات تضمّ آلاف الصفحات عن أنواع الفراش وطبيعته؟ وتراه أتلف نظره حتىٰ صارت عدسات نظارته أثخن من قعر قارورة مياه غازية! وهو فَرِحٌ جذِل، أن ٱستطاع تسجيل وتصوير لَقْطَة لِنَوْع نادِرٍ من الفَراش، رَصَدَه لأكثر من عام كامل، وكَمَنَ له، ينتظر ذوَبان الثلُوج وإطلالَة الربيع علىٰ سفوح الهملايا في «كتمندو»!

لم يتزوَّج ليستقرَّ في عائلة وينْعَم بذُرِّيَّة، لم يدَّخِرْ مالاً ولا رصيداً في مصرف، لم يتقلَّد منصباً ولم يتسنَّم مقاماً، لم يَصْبُ إلىٰ سمعة ولا طَمَعَ في شهرة، لم يهنأ بدارٍ فارهة ولا سيارة فاخرة، بل لم يلذ يوماً بوَجبة علىٰ مائدة عامرة... قضىٰ هٰذه الحياة علىٰ الأطعمة المجفَّفة والمعلبات الباردة، يقتات بها بين الأشجار والحجارة حيث يكمن لتصوير حبيبته الفراشة! يحمل بيته علىٰ ظهره وهو لا يتجاوز كيساً يندس فيه ليلاً فهو فراشه ودثاره، وإن ترفَّه وبَطِرَ، نصَبَ خيمة!

وإذا كنَّا لا نجِد في بلادنا، ونفتقد في مجتمعاتنا مثل هٰذه النماذج من عُشَّاق العلم والمهووسين بالبحث والتحقيق والدراسة، سواء في الطبيعة أو الأحياء وأعماق البحار وعالم الحيوان والفضاء والكيمياء، وغيرها من أصناف العلوم...

فهناك نمَطٌ وشكل آخر، يبدو من طبيعة أُخرىٰ... ولٰكنه ـ في الحقيقة وواقع الأمر ـ يجتمع مع هٰذه النماذج في أصل العِلَّة والوازع، ويلتقيان في كونهما أمارات ومظاهر لحالة واحدة:

لماذا وكيف ينصبُّ ٱهتمام شبابنا علىٰ قضايا هامشيَّة، ويستغرقون في أُمور غاية في التفاهة، فنجدهم يعرفون جميع أنواع وأصناف السيارات والإلكترونيات والكماليَّات، ويميِّزون بين سنوات صنعها مهما قلَّ الفارق والٱختلاف، ويعرفون خصائص ومميزات كلِّ نوع؟!

لماذا وكيف يحيط شبابنا بأسماء الفنانين ويحفظون أغاني جميع المطربين، وأفلام الممثلين ونجوم السينما؟ ويعرفون خصوصِيَّاتهم الشخصيَّة والعائليَّة، ويتابعون أخبارهم وقضاياهم وخلافاتهم، ناهيك بأعمالهم؟! هٰذه الممثلة عشِقَت ذاك المخرج، وهٰذا المطرب أحبَّ تلك الراقصة، وهٰذا الممثِّل طلَّق زوجته وٱنفصلا، بعد أن أُغرم بزميلته وٱفتُضح أمره!... لمن تُطبع عشَرات المجلَّات "الفنيَّة" التي تتابع هٰذه الأُمور، مَن الذي يشتريها ويعنىٰ بها، ولماذا؟!

لماذا وكيف يعرف شبابنا جميع فِرَق ولاعبي كرة القدم في العالم! يعرفون متىٰ سجَّل هٰذا النجم ذاك الهدف، وكيف ٱنتقل إلىٰ هٰذا الفريق، وكم ٱبتاعوه كمُحترِف يمتهِن اللعب؟ وماذا فعل في تلك المباراة... كلُّ ذلك بدقَّة مُتناهِية وشغَف وحرص مذهل!؟

لماذا يتعصَّبون لفرقهم ونجومهم إلىٰ هٰذا الحدِّ؟ حدٌّ بلغ ببعضهم ٱستعداده للموت، ومحاولته الٱنتحار عند خسارة فريقه! ولا يكون التعصُّب في أغلب الأحيان لِوازع وَطَنيٍّ، ولا دافع يمسّ الٱنتماء بمُخْتَلَف صوَرِه، بل دون أية مناسبة، فقد شاهدت عراكاً بين عربيين ينتصر أحدهما لفريق ألمانيا والآخر للبرازيل!

هل ينفردُ اللهو واللعب كجَذرٍ وأساس، ويستقلُّ كعِلَّة تامَّة لهٰذه الحالات والظواهر؟ هل هي مجرَّد تسلية وهواية؟ لا أعتقد ذلك، فهي أُمور مُكلِفة ومُتعِبة، علىٰ مختَلَف المستويات، وتتطلَّب ملاحقتها ومعايشتها جَهْداً ومثابرة وبذلاً... إنَّ التفاعل والحماس وتلَف الأعصاب الذي يُصاحب مُتابعة أحدِهم لمباراة فريقه في كرة القدم شيءٌ يصعب وَصْفه ونقله!

كيف ولماذا بكَتْ بعض المؤمنات علىٰ موت «ديانا سبنسر»؟!

إنَّ الأمر ليس بالبساطة والسذاجة التي يتعامل بها بعضهم وينظر فيها إلىٰ الأُمور فيُدخل هٰذه المظاهر في: البُعد عن الدين وضياع الاْلتزام وقلَّة التقوىٰ، وفي الفساد والاْنحلال الأخلاقي، وفي الترف والكسل والميوعة، والشخصيَّة الاْستهلاكيَّة الرخوة، غير المنتجة، التي أخذت تنشأ عليها الأجيال، وفي الجهل والتردِّي العلمي...

قد تصحُّ هٰذه الأُمور كجزء للعِلَّة، ولكني أتوقَّف عن اْعتبارها العِلَّة التامَّة، وأتحفَّظ علىٰ منشأ إطلاقها، وطريقة الحكم فيها...

إنني شخصياً أعرف بعض المؤمنين الملتزمين، الذين لا يفوتهم فرض جماعة، ويحسبون حتىٰ لِلُقمة الطعام التي يُدْعَوْن إليها، هل هي من حلٍّ؟ فضلاً عن ذكاتها وطهارتها، ومع ذلك أراهم مصابين بهٰذا الداء! فينذرون نذراً شرعياً، ليفوز فريقهم في المباراة، وتجدهم في نفس الحماس والتفاعل واْنشداد الأعصاب والتوتُّر، وهم يُتابِعون مباراة فريقهم، كغير المتدينين تماماً! وقد سمعت أنَّ بعضَ هٰؤلاء يعمد لاْستعمال سماعة الأُذن لمتابعة المباراة أثناء إلقاء إمام الجماعة خطبته في المسجد، من خلال مذياع صغير أخفاه في جيبه، أو أنه يتلقىٰ النتيجة برسائل عبر هاتفه النقَّال... والإمام ماضٍ في محاضرته وموعظته!

وأجدُ في أوساط المؤمنين (بالمعنى الأخص) من وَلَعَ بصنف من الكماليات بحيث جاءت ساعته ونظارته وقلَمه من نفس النوع (الماركة)، وهذا مما يبذل له كلَّ الاهتمام والجهد والعناء، ويتكلَّفه من مال، في إصرار تحار منه العقول وتطيش الألباب! وتجده يتحيَّن أية فرصة ليتحدَّث في هذا الأمر وحَوله، ويقنعك بالانضمام إليه ومتابعته في مسلَكه هذا، وتجد في نبرته ولحنه سحنة التعصُّب والغيرة على الصنف المخصوص الذي يستعمله، إذا ما تعرَّض للمقارنة والتفاضل... وصدق القائل: وللناس في ما يعشقون مذاهب!

إنها من أسرار هذه النفس الإنسانية وعجائبها! أن يودع الباري عزَّ وجلَّ فيها هذه الطاقة، فيخلِّف فيها هذه الحالات التي يحار المرء في فهمها وتفسيرها!

إنه الحبُّ! هذه النفحة الإلهية الخالدة الأبديَّة...

لا بُدَّ للإنسان أن يعشق ويحبَّ، وعدم الحبِّ نقصٌ في الخِلقة، وجفوة مع الروح، ونزاع مع الفطرة، وتحايل على الطبيعة... علينا أن نتفهَّم تلك الظواهر الاجتماعيَّة منطلقين من هذا الأصل، ولنا أن نضمَّ إليه، بعد ذلك، ما شئنا من علَلٍ وأسباب، تقدَّمت على غيرها أو تأخَّرت، زادَت عنها أو قلَّت.

لولا الحبُّ لما تهافت هذا على المال، ولا سفَكَ ذاك الدماء في سبيل الحكم، ولما عَبَأ الشاب بطراز السيارة ونوع الساعة وصنف الحلَّة واسم المعمل العالمي الذي خاطَها، ولما طَرِبَ مُستمع الأغاني، ولما تحمَّس مُشجِّعُ الرياضة، ولما اهتمَّ أحدٌ بطَلاق الراقصة وزواج الممثل، ولما بكَت تلك المسكينة على «أميرة ويلز» «ديانا سبنسر» وتسمَّرت أمام شاشة التلفزيون تتابع جنازتها لِسَاعاتٍ متمادية...

ولما كتبت كتابي هـٰذا!

ودعونا نعود إلىٰ الأصل: مما جاء في (عبهر العاشقين):

... جَـمَـعَ (الله) أرواح المـؤتلفين بنعت المحبَّـة والعشق، لعشقه ومحبَّته في هـٰذا العالم، كما جمعها قبل (أن تظهر في) الأجساد في حضرته، التي هي مشهَد خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾؟ فاتَّصلَت محبَّةُ البداية بمحبَّةِ النهاية. فطارَت الأرواح في عالم العشق الربَّانيِّ بجناح العشق الإنساني بمراكب العشق الرباني.[1]

ويقول «ٱبن حزم الأندلسي»:

إنَّ الحبَّ ٱتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هـٰذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا علىٰ ما حكَاهُ بعضُ أهل الفلسفة (أنَّ): الأرواح أُكَرٌ مقسومة، لـٰكن علىٰ سبيل مناسبة قواها في مقرِّ عالمها العُلويِّ، ومجاورتها في هيئة تركيبها. وقد علمنا أنَّ سرَّ التمازج والتباين في المخلوقات إنَّما هو الاتصالُ والانفصال، والشكلُ دأباً يستدعي شكلَه، والمثلُ إلىٰ مثلِه ساكنٌ، وللمجانسة عمَلٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مُشاهَد، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد، والنزاع في ما تشابَهَ، موجُودٌ فيما بيننا، فكيف بالنَّفس وعالمها الصافي

(١) (عبهر العاشقين) لـ «الشيخ روزبهان قلي الشيرازي» (بحثٌ في التصوُّف الفارسي)، بتصحيح وتقديم «هنري كوربان» و«محمد معين» (ص٣).

الخفيف، وجوهرها الصعَّاد المعتدل، وسِنخِها
المهيّأُ لقبول الأتفاق والميل والتوْق والأنحراف
والشهوة والنفار.[(١)]

وفي الحديث الشريف عن «المفضَّل بن عمر» قال: سألت «أبا عبدالله» عليه السلام عن العشق، فقال: "قلوبٌ خَلَت عن ذكر الله، فأذاقَها اللهُ حبَّ غيره".[(٢)]

والرواية بحدٍّ ذاتها مدرسة متكاملة، فقد قرَّرَت حقيقة، أبرمتها طبيعة الخلق وفطرة الإنسان، ثم طرَحت العقيدة الإلهية، والمنهج الحقّ في التعامل مع هذه الحقيقة.

لا بدَّ من الحبِّ، ولا بُدَّ لهذا القلب، هذا الوعاء المعدُّ لِتلقِّي ذلك الفيض وبثِّه، أن يمتلئَ بحبٍّ ويعتمر بِذِكْرٍ... فلا يمكنه أن يبقىٰ خالياً، وإلا لَصَارَ نهبة ومَطمَعاً...

---

(١) قوله "في أصل عنصرها الرفيع"، كأنه تعبير آخر عن القول "في عالم المُثُل". والقول المنسوب للفلاسفة، أو لبعضهم، أنَّ الله جلَّ ثناؤه خلق كلَّ روح مدوَّرة الشكل، علىٰ هيئة الكُرة، ثم قطعها أيضاً فجعل في كلِّ جسدٍ نصفاً، فكلَّ جسَد لقي الجسد الذي فيه نصفه الآخر وَقَعَ بينهما العشق، للمناسبة القديمة. والفرق بين رأي «أبن حزم» ورأي الفلاسفة هو في حدود القسمة ليس إلّا، فبينما يذهب «أبن حزم» إلىٰ أنَّ النفوس تجزَّأت عدَّة أجزاء، يرىٰ الفلاسفة أنَّ الكُرة أنقسمت نصفين فحسب، كلٌّ منهما يطلب صاحبه، وفي نهاية المطاف نجد «أبن حزم» الذي لا يؤمن بالتكثُّر، يأخذ برأي الفلاسفة أيضاً، ولا نراه يقدِّم تفسيراً علىٰ رفضه الشكل الكُرِّيِّ، أو الكروي للأرواح. انظر: ‹طوق الحمامة› تحقيق وتعليق الدكتور «إحسان عباس» (ص ٩٣ ـ ٩٤).

(٢) انظر: ‹البحار› (ج ٧ ص ١٥٨).

فخلُوُّ القلب يعني ٱنسحاب جنود الرحمن وٱنهزامهم في المعركة الخفيَّة التي تدور رَحَاها مع جنود الشيطان في التسابق على دخول القلب وٱحتلاله، فيغدُو القلب وكأنه منطقة تخلخلَت فيها الجاذبية، أو آنية فرغت فيما هي على ٱتصال بمحيطها الممتلئ، فأبىٰ قانون الطبيعة إلّا ملأها وسدَّ الفراغ فيها، فتنصبُّ عليها، وتتدافع نحوها الأهواء لتسدَّ الفَرْجَة وتستحوذ على الموقع!...

وهنا يأتي دور الأولياء الإلهيين والعلماء الربانيين في هداية الإنسان، وتنبيهه إلىٰ المادَّة الحقِّ التي يجب أن لا يسمح لِغَيْرِها بدخول قلبه، والسكنىٰ والتوطُّنَ فيه، وٱعتلاء ذلك العرش، وقد ٱستودعه الله وٱئتمنه عليه، فـ "قلب المؤمن عرش الرحمن" .(١)

دورهم في صقل العقل وإذكاء أدواته وإزاحة الحجب عن مُدركاته، وفي المقابل، نبذِ الأهواء وإطفاء منابعها، وإسدال الأستار على الملهيات وغضِّ الطرف وصرفه عنها...

وأعظِم به دوراً...

ينهىٰ عن عشق "الأغيار" ويحذِّر، وهو يكشف ألاعيب «إبليس» ومُغرَياته التي تخلق المعشوقين المزيفين، وتزيِّن القبائح للمؤمنين، ويفضح حبائل الشيطان وتدليساته التي تغوي الإنسان، وتقوده إلى الباطل، وهي تشرِّق به صوْبَ الشهوات والملذَّات الدنيوية من مال ومقام وشُهْرة، ومأكل ومرأة، فيعشقها ويهيم بها ويقضي عمره في إرضائها وتسكين فورتها، أو يغرِّب صَوْبَ معشوق تافه وَهمَ فيه ضرباً من المعنوية والجمال والكمال، فينذر حياته كلَّها لِوَصْلِه!

---

(١) انظر: (بحار الأنوار) (ج ٥٥ ص ٣٩ ح ٦١ باب ٤).

يأتي دَوْر الوعظ والإرشاد في ضبط هٰذه الحركة العظيمة، بما يحفظها من الانحراف والتلَف، من خلال توجيهها إلىٰ الحبِّ والحبيب الحقيقي، ضمن منهج لا يتجاهل هٰذا الأمر الفِطري، فضلاً عن كونه لا يلغيه، بل ينظر إليه كأداة غرَسَها الله في فِطرة الإنسان لتساعده علىٰ سلوك نهج الحق واتباع سبيله.

إنَّ الحقَّ الذي دعانا الله إليه، والفطرة التي جبَلَنا عليها هي حبُّ «آل محمد» عليهم السلام وعشقهم، فهو الإيمان الذي حبَّبه إلينا وزيَّنه في قلوبنا... ولا سيَّما لمن خُلِقَ من فاضل طينتهم، وعُجِنَ بماء ولايتهم، ممن أبرم العقد وأمضىٰ العهد، وهو في "عالم ذرٍّ".

وبعد، فهُم - عليهم السلام - أتمُّ أقمار الحسن، وأسمىٰ آيات الجمال، وأعلىٰ قِمَم الكمال... فمَن وراءهم لكي يُعشق دونهم؟!

❖ ❖ ❖

❖ صورة المؤامرة: القضاء على الحبّ!

إنَّ النهج الذي يتبنَّاه أرباب التغييب وإمامُهم المضلُّ في فهمهم وعرضهم للإسلام والدعوة إليه، بعيداً عن الحبِّ، والآلية التي يتبعونها في قَطْع أواصر وُدِّ «آل محمد» وعشقهم... هو، قبل أيِّ شيء، تجاهلٌ أخرق لهذه الحقيقة العظيمة، وخطأ فادح جسيم ستدفع الأُمة، كما سيدفع الفرد، ثمنه غالياً، وسينعكس في أهون الحالات: انصرافاً إلى الغناء والمغنين، وانشغالاً بنجوم الفنِّ والرياضة، وتعلُّقاً بالكماليات والتُّحَف والمقتنيات الغريبة والنادرة وما إليها، مما يصبُّ في صنع أحباب ومعشوقين وَهميين.

هذا إن أحسنَّا الظنَّ، وحملنا نهجهم وموقفهم على الجهل والخطأ، وإلّا فهي مؤامرة خطيرة وخطَّة خبيثة، وقَفَ مدبِّروها على تلك الحقيقة العظيمة وضرورتها وحتميَّتها، وعرفوا خطُورة العشق ودوره في حركة المؤمن وصبغته، فأرادوا القضاء على مَوطن العشق الصحيح ومحو صورته الربانيَّة وطمْسِ شكلِه الإلهي... لتخلو الساحة أمام "أرباب متفرقين" يتعلَّق كلُّ امرئ بمَن شاء، ويعشق مَن أراد منهم، في جاهلية لا تقلُّ قبحاً عن الجاهلية الأُولى!

إنَّ هذا الأمر (وُجُوب الحبِّ وضرورته) يُعدُّ من مميزات التشريع والفكر الإسلامي، إذ لم تأتِ أية مدرسة عقائدية بقانون مشابه لتطرحه كأصل عمَلي، ومادَّة مقنَّنة!

نعم، ما نراه في بقيَّة الأُطروحات والنظم والمدارس، هو المطالبة بآثار الإيمان، والحثّ على الالتزام بالتَّبِعات واللوازم المباشرة للميثاق والعقد الاجتماعي، أو بأعمال يكون الإيمان أو العهد المتفق عليه مصدراً وعلَّة لانبعاثها. ولكننا هنا أمام شيء آخر، يختلف عن ذاك...

فالإيمان قضية عقائدية عقلية بُرهانية، تخضع لأدلَّة معيَّنة، تَثبُت، فتذعن لها النفس، فتتبنَّاها، ثمَّ يترتَّب على هذا الثبوت والتبنِّي التزامات وفروض معيَّنة ينبغي التمسُّك بها والعمل بمقتضاها، أمَّا العهود والمواثيق الأجتماعية الحاكمة في النظُم والمدارس السياسية كالدساتير والقوانين، فمقولة خارجةٌ تخصصاً عمَّا نريد.

أما الحبُّ، فحالة وُجدانيَّة قلبيَّة (وتكاد تكون قهريَّة ولا إرادية)، إنه حالة شعوريَّة عاطِفيَّة، وقد لا تستند إلى مقوِّمات "عقلية" وحيثيَّات فكريَّة مباشرة. وهي منفصلة تماماً عن مرحلة العمل بمُقتضاه (بمقتضى الحبِّ)، وللتدليل نرجع إلى فكرة العبادات التي يقوم بها شخص مبغض لـ «أهل البيت» عليهم السلام ولكنه يعمل بفقهِهم ويتقيَّد به حرفياً!

والإسلام، ونقصد التشيُّع خاصَّةً، يُطالبنا ضمن عنوان منفرد ومستقل، ويُلزمنا بوُجوب "التولِّي والتبري"، أي حبِّ أولياء الله، والبراءة من أعدائهم. ولا يخفى أن ذلك من فروع الدين عندنا، ومنها الصلاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والزكاة والخمس والجهاد، مما يدفع إشكال وشُبهة أنَّ العنوان جاء للمطالبة بمستلزماته، مما يتبجَّح به القوم، فيقولون أنَّ المراد من "تولِّي الأئمة"، العمل بالواجبات الشرعيَّة، والمقصود من "التبري من أعدائهم"، تجنب المعاصي والحذر من أجتراح الذنوب!

وقد أنزل الله عزَّ وجلَّ في هذا الحبِّ العظيم والواجب الكبير قرآناً يتلى في خطاب أتمَّ الحجَّة وحَسَمَ النزاع، ومن جهة أُخرى كان خطاباً يرقُّ له الجلمود ويحنُّ له حتى القاسية قلوبهم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ۝٢٣﴾ (الشورى)...

وما كان هذا التصنيف الذي قسَّم أُصول الدين وفروعه ارتجالاً ولا جاء من فراغ، فهناك آلاف الروايات التي توجب حبَّ «أهل البيت» عليهم السلام وتطرح مودَّتهم كعنوان مستقلٍّ عن بقيَّة العناوين والواجبات الدينية في الإسلام. وللتبرُّك نذكر منها:

عن «محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلىٰ» عن «أبيه» قال:

قال «رسول الله» صلى الله عليه وآله:

" لا يؤمن عبدٌ حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه من نفسه، وتكون عترتي أحبَّ إليه من عترته، ويكون أهلي أحبَّ إليه من أهله، ويكون ذاتي أحبَّ إليه من ذاته. قال: فقال رجلٌ من القوم: يا «عبدالرحمن» ما تزال تجيء بالحديث يحيي الله به القلوب " .[1]

عن «محمد بن سليمان الديلمي» عن «أبيه» عن «ميسرة» قال:

دخلت علىٰ «أبي عبدالله» عليه السلام فقلت له: جُعِلتُ فداك، إنَّ لي جاراً لست أنتبه إلّا علىٰ صوته، إمَّا تالياً كتاباً يختمه، أو يسبِّحُ لله عزَّ وجلَّ، فسألت عنه في السرِّ والعلانية، فقيل لي: إنه مجتنبٌ لجميع المحارم. قال: فقال عليه السلام:

يا «ميسرة»، يعرف شيئاً مما أنتَ عليه؟

قلت: الله أعلم. فحجَجْتُ من قابِل، فسألت عن الرجل، فوجدته لا يعرف شيئاً من هذا الأمر. فدخلت علىٰ «أبي عبدالله» عليه السلام فأخبرته بخبر الرجل، فقال لي مثل ما قال في العام الماضي:

يعرف شيئاً مما أنت عليه؟

قلت: لا.

قال: يا «ميسرة» أيُّ بقاع الأرض أعظم حُرمَة؟

---

(١) انظر: (بحار الأنوار) (ج ٢٧ ص ٧٥ ح ٤).

قال: قلت: الله ورسوله وٱبن رسوله أعلم.

قال: يا «ميسرة» ما بين الركن والمقام رَوْضَة من رياض الجنة، والله لو أنَّ عبداً عمَّره الله في ما بين الركن والمقام ألف عام، وفيما بين القبر والمنبر بعده يعبده ألف عام، ثم ذُبِحَ علىٰ فراشه مظلوماً كما يذبح الكبش الأملح، ثم لقي الله عزَّ وجل بغير ولايتنا، لَكَانَ حقيقاً علىٰ الله عزَّ وجلَّ أن يكبَّه علىٰ منخريه في نار جهنَّم.(١)

وأعود لشرح القضيَّة، وتأكيد الفصل فأقول:

هناك مرحلة العمل والٱقتداء من خلال العبادات، والٱئتمار بالأوامر والٱنتهاء عن النواهي الإلهية، في نطاق وسلوك الجوارح والفعل والحركة البدنية، أي الٱتباع والطاعة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴿٦٥﴾﴾ (النساء).

وهناك مرحلة أُخرىٰ هي الخضوع والتسليم القلبي، وهي حالة وُجدانيَّة تقعُ في نطاق الٱنفعال النفسي والبُعد المعنوي والجانب العاطفي، فيجب أن تتطابق هذه الحالة النفسية وتكون رضاً وسكوناً وإذعاناً وعدم حرج وتسليماً في مقام: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

ثم بغضاً وبراءة وغيظاً وكرهاً في مقام: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴿٢٢﴾﴾ (المجادلة)، و﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ... تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴿١﴾﴾ (الممتحنة)، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: (جامع أحاديث الشيعة) لـ «آية الله العظمى السيد البروجردي» (ج ١ ص ٤٣٩ عن (عقاب الأعمال) لـ «الشيخ الصدوق»).

يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (النور)، و﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر)، و﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ (التوبة).

وهكذا حبّاً ومودَّة في مقام: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ (الحشر)، و﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (الشورىٰ)...

وكما إنَّ في الدين ومنظومته المتكاملة بالعقيدة والتشريع، صلاةٌ وصيامٌ وحجٌّ وذِكْرٌ، وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر وجهاد، وهناك قضاءٌ وقِصاصٌ ودِيَات، وهناك خُمسٌ وصدَقة وزكاة... في نطاق العبادات والمعاملات، ولا يشترطون في صحَّتها وقبولها، إلّا نيَّة القربة وعزم التقرُّب إلىٰ الله عزَّ وجلَّ طاعة له وطلباً للأجر والثواب، وموافقتها للأحكام والكيفيَّة التي جاءت بها.

هناك، في منظومة الدين، فرَحٌ وحُزْن، ورضاً وغضَب، وحبٌّ وبُغْض، وكلُّ ما يتعلَّق بالعاطفة التي يحملها الإنسان في قلبه، وهي مَقُولة أُخرىٰ، وبابٌ مختلف عن السابق.

والأزمة التي يثيرها التغريبيُّون ونعيشها ليست وَليدة يومها، فهٰذا المفهوم المتميِّز والمعنىٰ اللطيف، هو الذي خفيَ علىٰ كثير من المدارس والمذاهب الإسلاميَّة فطرحته جانباً وأهملته، وٱنفرد الشيعة الإماميَّة بالتمسُّك به وتعميقه، وهو واحد من أخطر مواقع النزاع وجذور الاختلاف مع الفرقة "الشيعية" الجديدة: دُعاة التغييب وخطِّه، كما كان بالأمس مع "الزيديَّة" و"البتريَّة" وأضرابها...

لا يمكن أن نُحِبَّ الله سبحانه وتعالىٰ ونعشقه، ولا حتىٰ أن نعرفه، ناهيك بأن نمتثل أوامره ونطيعه وندين بدينه، إلّا بسبيل معرفة «محمد» و«عليٍّ» وحبّهما وطاعتهما، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران)، ولا يكون ذلك إلّا بمعرفة وموالاة «إمام الزمان» عليه السلام، فلا نموت ميتة جاهليَّة... فإذا فعلنا، فقد عرفنا الله وعشقناه.

إنَّ المعصومين من «آل محمد» عليهم السلام هم "الإيمان" الذي حبَّبَهُ الله إلينا وزيَّنه، إذ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴿٧﴾﴾ (الحجرات)، وهم عليهم السلام "الإيمان" في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ (المائدة).

وهم "الهداية" إذ يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ (طه). وهم "الفطرة" في قوله تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم). وهم "الصلاة" إذ يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ (الإسراء). وهم "النبأ" إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ (النبأ)، ويقول: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (ص)...

ولو شئتُ لمضيتُ في هـٰذا حتىٰ ملأتُ صحائف مجلَّدات...

فهل يملك مَن رآهم إلّا أن يحبَّهم، ومَن عرفهم إلّا أن يعشقهم؟ وهل يلومنا فيهم بعد هـٰذا لائم؟

ليسوا أنداداً لله، حتىٰ تردَ شُبْهَةٌ في حبِّهم وتقوم فرَضِيَّة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، بل هم الأسماء والصفات، والكَلِمات والآيات...

أَيُشرِكُ أحدُنا إذا أحبَّ القرآن الكريم وعشقَ كلام الله؟

هل الكعبة نِدٌّ لله، يكفرُ مَن يطوف بها ويُشرِكُ مَن يتعلَّق بأستارها؟

هل الصلاة والصيام والحجُّ وغيرها من العبادات أربابٌ من دون الله يضلُّ ويغلو مَن يتعلَّق بها، ويستغرق ويكثر من العمل بها؟!

أقبُورِيَّة ووَثنيَّة أن نستلِم الحجر الأسود ونقبِّله؟ أشِركٌ أن نلجَأ بالاستغفار وطلب التوبة إلىٰ «رسول الله» ﷺ، لا إلىٰ الله مباشرة، أو إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وَحْدَه؟

كم هو مؤلم أن ترتفع أصوات تدَّعي أنَّها "شيعية"، تكرِّر إشكالات وشُبُهات «ٱبن القيم» و«ٱبن تيمية» و«ٱبن عبدالوهاب» وتنطلق من البؤرة نفسها؟! وهي مقولات أكل عليها الدهر وشرِب، وأشبعها علماؤنا، بل قتلوها بحثاً وردّاً، دحَضَها وقضىٰ عليها، ودفع أربابها لإهمالها والتخلي عنها، حتىٰ إنَّهم راحوا يبحثون عن مواطن جديدة، وبؤر مُستحدَثة ينقِّبون فيها عن مَوْطِن لِفِتْنَة!

وإذا بنا نجِدُ هٰؤلاء "الشيعة" يعودون إليها، في موقف وحركة أخجلت الأوساط العلميَّة أكثر مما ٱستثارت حفيظتها، ودفعت أكثر المتهتكين طَيْشاً ورُعُونة ليُطَأطِئ حياءً من هٰذا الإسفاف!

إنهم يرموننا ويقذفوننا من منطلق إخوة «يوسف»!...

الذين نسبوا إلىٰ أبيهم الضلال لِفرط حُبِّه «يوسف»، وقاسوا وقارنوا (كما فعل «إبليس» من قبل)، فقالوا نحن عُصبة (ولعلَّها دعوىٰ الأكثرية!)، ونحن أحقُّ بأن نكون محبوبين لأبينا، لأننا أقوياء، وأقدر علىٰ تنفيذ ما يريد، وتحقيق أهدافه والاستجابة لرَغباته...

والحال أنَّ حُبِّه لـ «يوسف» كان لحبِّ الله له، واصطفائه إيَّاه، و "محبوب الحبيب محبوبٌ"، فإفراطه ـ كما زعموا ـ في حبِّ «يوسف» لا ينافي خلوصه في حبِّه لربِّه، ولا يُخِلُّ به، فهو يقَعُ في طوله وعلىٰ امتداده. إنَّ محلَّ النزاع واعتراض القوم ومحاربتهم، أو محاربة التعلّق به، هم «محمد» و«آل محمد»: الصادر الأوَّل، والعقل الكلّ، هم أولياءُ الله وأحباؤه، هم آياته وكتابه، هم الأدلّاء عليه وبرهانه، هم محالُّ معرفته، ومساكن بركته، ومعادن علمه... ومن أحسن وَصفاً لهم من خلَفهم وبقيتهم، ففي التوقيع الصادر عن الناحية المقدَّسة علىٰ يد الشيخ الكبير «أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد» رضي الله عنه: "اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به وُلاة أمركَ، المأمونون علىٰ سرِّك... أسألك بما نطَقَ فيهم من مشيَّتك، فجعلتهم معادِن لكلماتك، وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كلِّ مكان يعرفك بها من عرفك، لا فرقَ بينك وبينها إلّا أنهم عبادك...".(١)

فحريٌّ بالمؤمن أن يسلِّم لهم، وإن عَجَز فليتوقَّف ويُرجع الأمر إلىٰ أهله، وإذا حارَ في معنىً مما جاء عنهم، ليعلِن بشجاعة (فهٰذا مقام الشجاعة، لا صدم الساحة وإثارة الفتنة وتشويش الأذهان!) إنه يجهل هٰذه المعاني ولا يمكنه إدراكها، وأن لا يتحوَّل بطغيانه وإصراره إلىٰ "ضالٍّ" ثم بإعلانه إلىٰ "مُضِلٍّ"...

❖ ❖ ❖

---

(١) (بحار الأنوار) (ج ٩٨ ص ٣٩٣ ح ١).

❖ تعالوا لنعشق...

أما وقد وَجَبَ الحبُّ وصارَ حتماً مقضياً، فتعالوا لنعشق...

تعالوا لنفارق تعاطينا الرتيب مع الدين، ونتجاوَز النسَق الجامد الجاف الذي جعل الصلاة والصيام، وعموم مظاهر التديُّن والألتزام، مثلها مثل بقيَّة مناحي الحياة، كالدراسة والعمل، والمأكل والمشرب، هلمُّوا لنخرجَ من هذا، إلى تعاطٍ مفعَم بنَداوة الروحانية وطَراوة الحبِّ، ولَطافة المعنوية، ولا أقول بتعاطٍ "رومانسيٍّ" أو شاعريٍّ حالم، لا تلبث أن تعرقله متطلَّبات العيش، ويتعثَّر بالواقع المرير، أو غير المرير، ولكن الحاكم بطبيعته "العمَليَّة" المنسجمة المتوافقة مع بقيَّة مناحي الحياة... بل بنهج يحمل إلينا اللطف ويرفدنا بالرقَّة، يزرع فينا، أو يرسِّخ الصفات "الإنسانية" من رِفْق ورَحمة، وخُضوع وذلَّة، ما يخلق النفوس المنكسرة والقلوب الخاشعة والأعناق الخاضعة، وهكذا ينمي فينا ويزهر التطلُّع إلى العدل ونبذ الظلم، ويكسر الرتابة التي تدعو إلى اليأس وتورث الأستسلام، لا في السلوك والعمل والدعوة فقط، بل في الروح والإحساس، فتبعث التوْق إلى حكومة العدل الإلهي، وتشحذ الهمم نحو تحقيق وَعْد الله في وراثة الأرض.

تعالوا إلى نهج يغيِّر حياتنا ويقلبها، أو يعدِّلها ويُصحِّحها، إلى ما يفعِّل العبادات ويجعلها رافداً حقيقيّاً للمعنويات، وزارعاً فعلِيّاً للأخلاق... فحتى تنهانا صلاتنا عن الفحشاء والمنكر، كما يفترض، لا بُدَّ من أجواءٍ تجعلنا نعيش إنسانيَّتنا في عمقها المعنوي، لا بُدَّ أن نتلمَّس ونتحرَّى ما يصبغنا بالروحانية، التي تخرج الصلاة عن رتابتها وما أحالها إلى "روتين"، وتجعلها أتصالاً بالله تعالى، ومعراجاً إلى السماء.

وهذا لا يكون إلّا بالحبُّ والعشق...

هـٰذا تعريب لقصيدة عاشق، طوىٰ المراحل وٱجتاز المنازل، فراحَ يـتغنىٰ، خرج من الرتابة وعاش العبادة حبّاً وعِشقاً بالحبيب، فأخذَ يشكو ويترنَّم. وهي قصيدة "من بخال لبت أي دوست گرفتار شدم" الشهيرة التي أنشدها «السيِّد الخميني» في أواخر حياته:

قــد شَـدَّ خـالُ لَـمَـاكَ قلبي يـا حبيبي بـالغـرامِ
وسُقَـامُ عينكَ كـانَ منهُ محنتي ولـظـىٰ سُقـامي
وهجرتُ ذاتي، صِحْتُ: "أنـا الحق"، صيحةَ مُستهامِ
وبحثتُ كـ «الحلَّاج» عـن صَلْبي بـمِقْـصَلَـةِ الهيـامِ
وعــذابُ حبِّكَ في فـؤادي قــد تـأجَّج بـالـضرامِ
حتـىٰ جَـزِعْـتُ، وصِرْتُ مفتضحَ الهـوىٰ بين الأنـامِ
هيـا... ٱفتحـوا الحـانـاتِ لي، لأعيشَ سُكـري في دوامِ
فلقـد ضجِـرْتُ من المسـاجـد والمـدارس في مقـامي
وخلعتُ ثَـوْبَ الـزهـدِ يَـرفُلُ بـالـريـاء وبـالأثـامِ
ومُـذْ ٱرتـديتُ مُسـوحَ "درويـش" تكـشَّـفَ لي ظلامي
وسَـئـمـتُ مـن نُـصْـحِ تـلاهُ عليَّ وُعَّــاظُ الـكلامِ
فلِــذَا ٱستغـثْـتُ بعــابِثٍ ثَـمِلٍ تمــرَّغَ بــالـمُـدامِ
دعـني... لأذكــر معبــدَ الأصنـامِ مَنهَلَ كلِّ ظـامِ
فعلـىٰ يـدَي صنـم الـسُكـارىٰ قـد نهضت من المنـامِ!

وهـٰذه قصيدة لـ «ٱبن الفارض»:

يــا أهلَ وُدِّي! أنـتُـمُ أمَلي، ومَــن
نــاداكُـمُ يــا أهلَ وُدِّي قــد كُفـي
وحيـاتِكُـمْ وحيـاتِكُـمْ، قَسَماً، وفي
عُمْــري بغـير حَيـاتِكُـمْ لمْ أحْلِفِ

لَــوْ أنَّ روحِـي فِي يَــدي وَوَهبْتُهــا
لمبَـشِّري بقُــدُومكُـمْ لَمْ أُنْــصِفِ
قُلْ للعـذُولِ: أطَلْتَ لَـوْمي طـامِعَـاً
أنَّ الملامَ عَـنِ الهَــوَىٰ مُــسْتَــوقِفِي
دعْ عنكَ تعنيفي وذُقْ طعمَ الهـوىٰ
فــإذا عَــشِقْتَ فبَعــدَ ذلك عَنِّفِ
بَرِحَ الخَفَاءُ بحُبِّ مَنْ لَوْ في الدجىٰ
سَفَـرَ اللِّثـامَ لَقُلتُ يـا بـدرُ ٱختَفِ
لَوْ كـانَ مَنْ يَرضـىٰ بخَـدِّيَ مَـوْطِئاً
لـــوضَعـتُهُ أرضــاً ولَـمْ أستَـنكِفِ
لَـوْ أسمَعُـوا «يعقـوبَ» ذكْـرَ مَلاحـة
في وَجهه نَـسيَ الجمالَ «اليـوسُفـي»
أوْ لَــوْ رآه عـــائـــداً «أيــوبُ» في
سِنَة الكَرىٰ قِدْماً منَ البلـوىٰ شُفِي
كَمَلَتْ محـاسنُهُ، فَلَـو أهـدىٰ الـسنـا
للبـــدر عِنــدَ تمــامِه لَـمْ يُخسَفِ
وعلــىٰ تَفَـنُّنِ واصِفـيه بحُـسنِهِ
يفـنىٰ الـزمـانُ، وفيه مـا لـمْ يُـوصَفِ
ولقــد صَـــرَفْتُ لحُبِّه كُلِّي علــىٰ
يَـدِ حُسنِه، فحَمـدْتُ حُسنَ تَصرُّفي
فـالعينُ تهـوىٰ صُـورةَ الحُسـنِ التي
رُوحي بهـا تَصْبُـو إلـىٰ مَعنىً خَفِي
أسعِــدْ أُخَـيَّ وغـنِّـني بحـديـثِهِ
وٱنثُـرْ علـىٰ سَـمعي حَلاهُ وشَنِّفِ

لأرىٰ بعيْنِ السمعِ شاهِدَ حُسنِهِ
معنىً، فأتْحِفْنِي بذاكَ وشرِّفِ

الأبيات لـ «عمرو بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، الملقب شرف الدين بن الفارض»، وهي من أجمل ما قيل في الغزل الإلهي، ولكنّي أُكرر هنا أيضاً بأنني لا أدري مَن هو مخاطَبه ومعشوقه الحقيقي، بمعنىٰ أنني لست واثقاً من بواعِث الحالات التي تنقل عنه، فالأقوال فيه مختلفة...

أمّا نحنُ فننقل هٰذه الأبيات وننشدها ونردِّدها، وقلوبنا تهوي إلىٰ كعبة ولاء «أهل البيت» وقِبلة حبِّهم، والخطاب هنا لبقيتهم، «بقية الله» أرواح العالمين له الفداء، و "الضمير" يعرف مرجعه.

تعالوا لنخرج عن ذلك الإطار التقليدي المعهود، والشكل الثابت الرتيب، فهنا موقع الإبداع والتجديد!

هلمُّوا نُحيي آداب وسُنن التعلّق به، ونحرِّك ونفعِّلَ أدوات الٱرتباط العاطفي والروحاني به عليه السلام، ومن ثَمَّ نرسِّخ حبَّه ونوطِّدَ عشقه، فتعتمر قلوبنا بجماله وكماله، وتأنس أرواحنا بنفحات ذكْره والقرب من حضرته، والدنو من ساحة قدسه... لننشر أريجه في أجوائنا، ونعطِّرَ مجالسنا بذكره وسيرته، فلعلَّ حَيّاً مِنَّا يلتقط الإشارة، ويقتنص الحقيقة، ويستلب نفسه من أدران أوْهام العيش الكاذب والحياة الماديَّة التي ٱرتهنتنا وهيمَنت علينا!

لِنكاتِب «المولىٰ» عليه السلام كما يكتب الحبيب لحبيبه، نعم لِنكتب له رسائل الشكوىٰ من فراقه، ونرفع إليه عرائض الحاجة ورِقاع الطلَب، لنبثَّه همومنا، لِنلجأ إليه بمقاصدنا ونعرض عليه مشاكلنا... وتسأل عن البريد؟ إليك البحار والمحيطات، والجداول والأنهار.

لنشدَّ الرحال إلىٰ "مسجد السهلة" في «الكوفة»، و "سرداب الغيبة المقدَّس" في «سامراء»[1] و "مسجد جمكران" في «قم»، ونجدِّد عهداً بدِيارٍ حلَّ فيها «الحبيب»، ثم نكتب العريضة ونلقيها في بئر هناك... لِنقصِد «عرفات» و«المشعر»، ولنتفقَّده في «البيت و«المقام»، ولنتصفَّح الوجوه بين «الصفا» و«المروة»، فهو ـ بأبي وأُمّي ـ حاضر كلِّ موسم، لِنقصِد مراقد أجداده الطاهرين عليهم السلام ونزور قبورهم ونلثم تلك العتبات العاليات، ثم نلقي عرائضنا في ضرائحهم المطهَّرة...

مما في (تحفة الزائر) عن «الصادق» عليه السلام قال: إذا كانت لك حاجة إلىٰ الله تعالىٰ أو خِفْتَ شيئاً فٱكتُب في بياض:

---

(١) كم هو مؤلم أن يُطالِبَ "خطيب حسيني" بطمس هٰذا الأثر الخطير، وطمر هٰذا الموقع العظيم، وردم "سرداب الغيبة"! ليقطع ـ في ظنِّه وقصير نظره ـ ألسُن المخالفين، ويثبت لهم أننا لا نعتقد ببقاء «المولىٰ» عليه السلام في هٰذا المكان!

هٰكذا، وبهٰذه السهولة واليُسر، يحكم الرجل ويقضي ويفصل! ولا يدري كم أزرىٰ حُكمه هٰذا بالوعي والحِكمة، وبخسَ حُسن التدبير والكياسة، وأودىٰ بفنِّ السياسة وأُصول القيادة، ثم كم هتك العلم وٱستباح الفضيلة، وحكَّم الجهل والتعصُّب للرأي، وكم ٱنطلق من الاْعتداد بالنفس ومن الغرور، وإلّا فمن أين هٰذه الجرأة التي سمحت له أن يقيِّم المصلحة الإسلامية العليا، وكأن لا ربَّ لهٰذا الدين ولا وليَّ له ولا راعٍ ولا صاحب! فقرَّر ـ لو تمكَّن وتسلَّط ـ أن يرتكب هٰذه الجناية الكبرىٰ، فيسحقَ تراث أُمَّة توارثته الأجيال منها، وينتظره الخلف عن السلف، أمانة مصونة ووَديعة جليلة وتركة عظيمة، ناهيك بمقدَّسٍ، وكم يعظُم أمره ويجلُّ خطبه عند أصحابه الحقيقيين.

والرجل رحمه الله لم يكن من حزب التغييب (تنظيمياً)، ولٰكنه تأثر بهم، وكثيراً ما نهض بخِطابهم، وإن كان له العذر في سلامة قصده، فمن جهله وعدم تخصُّصه، فهو "دكتور" في اللغة، لم يَقضِ في الحوزة العلمية ما يسمح له بتمييز الغثِّ من السمين في مقولات القَوْم، فجَاراهم ووَافَقَهم في بعضها.

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهمَّ إني أتوجَّه إليك بـأحبِّ الأسماء إليك، وأعـظـمِهـا لَـدَيْك، وأتقرَّب وأتوسَّل إليك بمَن أوْجَبْتَ حقَّه عليكَ، بـ «محـمَّـد» و«عليٍّ» و«فـاطـمـةَ» و«الحسَـن» و«الحسَين» و«عليِّ بن الحسَين» و«محمد بن عليٍّ» و«جعفر بن محمَّد» و«موسىٰ بن جعفرٍ» و«عليِّ ٱبن موسىٰ» و«محمَّد بن عليٍّ» و«عليِّ بن محمَّدٍ» و«الحسَن بن عليٍّ» و«الحجَّة المنتظر» صلوات الله عليهم أجمعين ٱكفني كذا وكذا...

أي ٱذكر حاجتك، ثم تطوي الرقعة وتجعلها في بندُقَةٍ من طين، وتطرحها في ماءٍ جارٍ، أو بئر، فإنه تعالىٰ يفرج عنك" .[1]

ودَعُونا نسمو قليلاً ونترفَّع عن الحاجات الدنيوية...

لنلجأ إليه في التوبة وطلب الغفران، وقد أحالنا الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ جدِّه في قوله تعالىٰ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ (النساء)، لنضجَّ: أي ربِّ! ها نحن نأتيك من الباب الذي أمرتنا...

وأن يا «ٱبن الحسَن»:

خُذ بأيدينا، وٱستنقذنا مما نحن فيه، وٱستغفر لنا، وٱسأل جدَّك الشفيع، أن يستغفر لنا ربَّه، ويا أيها العزيز قد مسَّنا وأهلنا الضرُّ، وجئنا ببضاعة مُزجاة، فأوفِ لنا الكيلَ، وتصدَّق علينا...

---

(١) انظر: «البحار» (ج ١٠٢ ص ٢٣٥ ح ٣ رواه عن «المصباح»).

لِتكُن حاجتنا رؤيته ولُقياه، لنكتُب له شكوىٰ المحبين بلغة العاشقين ورغبة المتيَّمين، فنتحدَّث عن لَوْعة الهجْر وألم الفراق، لِنَتوسَّل إليه برَجاء الوَصْل واللِّقاء، فإذا اكتحلت أبصارنا، والتقيناه، فصافَحَنا، ولمسنا يدَه الشريفة، أو حتىٰ ثوبه وأطرافَ ردائه، فقد حظينا بالإكسير الأعظم، ونلْنا المنىٰ كلَّ المنىٰ، حتىٰ أُمورنا وحاجاتنا الدنيوية ستؤمَّن، إمَّا بكنز الرِّضا والقناعة، أو بالواقع والتحقُّق الخارجي إن شئنا...

تعالوا لنتغزل به كما فعل «السيد رضا الهندي» بحبيبه «أمير المؤمنين» في "كوثريته" الخالدة:

أمُفَلَّجُ ثغْـرِكَ أم جَـوْهَـرْ	ورحِيقُ رِضـابِكَ أم سُكَّـرْ
قـد قـالَ لِثَغْـرِكَ صـانِعُهُ:	"إنَّـا أعطينـاكَ الكَـوْثَـرْ"
والخـالُ بخـدِّكَ أمْ مِـسْكٌ	نقَّـطـتَ به الـوَرْدَ الأحمَـرْ
أمْ ذاكَ الخـالُ بِـذَاكَ الخـ	ـدِّ فَتِيتُ النَّـدِّ علىٰ مجمَـرْ
يـا مَنْ تبـدُو لي وَفْـرَتُه	في صُبْحِ مُحيَّـاهُ الأزهَـرْ
عَجَبـاً من جمـرته تـذكُـو	وبهـا لا يحترقُ العَـنْبَرْ
فـأُجَـنُّ به في الـليـل إذا	يغشىٰ والصُبح إذا أسفَـرْ
إرحَمْ أرِقـاً لـو لم يَمْـرَض	بنُعَـاسِ جفُونكَ لم يَسْهَـرْ
تَبْيَضُّ لهجـرِكَ عَيْنَـاهُ	حُـزنـاً ومـدامِعُهُ تحمَـرْ
يـا للعُـشَّـاقِ لمفتُـونٍ	بهَـوىٰ رشـأٍ أحْـوَىٰ أحـوَرْ
إن يَبـدُ لـذِي طَـرَب غنـىٰ	أو لاحَ لِـذِي نُـسُكٍ كَبَّر
آمـنْـتُ هـوىً بـنُـبُـوَّتِهِ	وبعَيْنَيْه سِحْـرٌ يُـؤثَـرْ[1]

(١) انظر الصفحة ١٠٠ من هذا الكتاب، حيث نقلتُ حديثاً لـ «السيد الخميني» عن كتابه (شرح دعاء السحر) في معنىٰ كون النبوّة باطناً للولاية، فتأمّل!

أصفَيْتُ الـوُدَّ لِـذِي مَلَلٍ عَيْـشِي بقَـطِيعَتِهِ كَـدِّرْ
يـا مَنْ قـد آثـرَ هِجْـرَانِي وعليَّ بلُقيَـاهُ ٱستَـأثَـرْ
أقـسَمْـتُ عليكَ بـما أولَتْـلكَ النُضْرةُ من حُسْنِ المنظَرْ
وبـوَجْهِكَ إذ يحمَـرُّ حَيـاً وبِـوَجْهِ مُحِبِّكَ إذ يَـصْفَـرْ
وبلُـؤلُـؤِ مَبْسَمِكَ المنْظُـو مِ ولُـؤلُـؤِ دَمعي إذ يُـنـثَـرْ
أن تـتركَ هـٰذا الهجْـرَ فلَـيْـسَ يَلِيقُ بمِثْلي أن يُهجَـرْ
فٱجْلُ الأقـداحَ بِصَرْفِ الـرَّا حِ عسىٰ الأفـراحُ بهـا تُنشَرْ
وٱشْغِلْ يُمنـاكَ بِصَبِّ الكـا سِ وخَلِّ يَسـارَكَ للمِـزْهَـرْ
فـدَمُ العُنْقُـودِ ولحنُ العُـو دِ يُعِيـدُ الخيرَ ويَـنفي الـشَّرْ
بكِّـر للـسُّكْـرِ قُبيلَ الفجـر فـصَفْـوُ الـدَّهْـرِ لمن بكَّـرْ
هـٰذا عـمَلي فٱسلُـكْ سُـبُلي إنْ كُـنْـتَ تُقِـرُّ علىٰ المنكَـرْ
فلَقَـدْ أسرَفْـتُ ومـا أسلَفْـتُ لِنَفْـسِي مـا فيه أُعْـذَرْ
سـوَّدْتُ صحيفَـة أعمالي ووكَلْتُ الأمـرَ إلىٰ حَيْـدَرْ
هـو كَهْفي من نُوَبِ الـدُّنيا وشفيعي في يَـوْم المحْـشَـرْ
قـد تَـمَّـتْ لي بِـولايـتِهِ نِعَمٌ جَمَّـتْ عن أن تُـشكَـرْ
لأُصيبَ بهـا الحظَّ الأوفىٰ وأُخصَّـصَ بـالـسَهْمِ الأوفَـرْ
بـالحِفـظِ من النـارِ الكُبرىٰ والأمـنِ مـن الفَـزَعِ الأكـبرْ
هل يَمنَعُني وهُـوَ الـسَّـاقي أن أشرَبَ من حَوْضِ الكَوْثَرْ
أمْ يَـطْـرُدُني عَنْ مـائِـدَةٍ وُضِعَـتْ للقَـانِع والمعْـتَرْ

❖ ❖ ❖

ليفرض أحدُنا وهو خارج من داره يوماً، أنه علىٰ موعد مع حبيبه، فيعدُّ العُدَّة للقائه، ويتهيأ رُوحاً وجسماً وهيئة، فيتعطَّر بأحسن الطيب، ويرتدي أفخر الثياب، علىٰ أمل أن يحظىٰ بلقاء «مولاه» عليه السلام...

ثم لنكرِّرَ ذلك يوماً بعد يوم، ونتابعه حثيثاً، ولنحدِّثَ به أنفسنا ونمنيها بقرب الإجابة، ولنرسِلَ له الرسائل والعرائض، ونستحثُّه في طلَب الموعد، والعطف والتحنُّن وإتاحة فرصة اللقاء...

هكذا نتحرَّك في طريق العشق، ونمضي كما هي أُصول الغرام وآدابه، وإن بدا لِوهلة أنَّ الخطاب ضائع بلا جواب، أو أنَّ الحبيب وَهْمٌ لا وجود له، أو أنه لا حاجة ولا مُقتضٍ لهذا السعي والحرص على الأتصال، فأقطع أنه نزغ الشيطان، فألعنه، ولا تلتفت، وأعلم وأبشِر حينها أنك غدوت قريباً من الإجابة!

إنها سيرة عظماء الطائفة وكبار علمائها، تعالوا لنقتدي بهم ونتأسّى بسيرتهم ونهجهم، لقد راحُوا في العشق والهيام إلى أقصى ما يمكنهم حتى هجروا الأوطان وفارقوا الخلان، وأنقطعوا أربعين أربعاء، بعد أربعينيَّة أُخرى، في مسجد «السهلة» وغيره من مظانِّ الإجابة واللقاء.

تعالوا لنترنَّم مع «الشيخ البهائي» في رباعياته وننشد:

يا كِراماً صبرُنا عنهم مُحَالْ ... إنَّ حالي من جَفَاكُمْ شرُّ حالْ
إنْ أتى من حَيِّكُم ريحُ الشَّمالْ ... صِرتُ لا أدري يميني من شِمال

حبَّذا ريحٌ سَرَىٰ من «ذي سَلَمْ» ... من رُبىٰ «نجد» و«سَلْع» و«العَلَمْ»
أذهَبَ الأحزانَ عنَّا والألَمْ ... والأماني أدركت والهمُّ زالْ

يا أخلائي بـ «حَزْوىٰ» و«العقِيق» ... ما يُطيقُ الهجْرَ قلبي ما يُطيق
هل لِمُشْتَاقٍ إليكُمْ من طريق ... أم سَدَدْتُمْ عنه أبوابَ الوِصَال

لا تلومُوني على فَرْطِ الضَّجَرْ ... ليسَ قَلْبِي من حديدٍ أو حَجَر
فاتَ مَطْلُوبي ومحبُوبي هَجَرْ ... والحشا في كلِّ آنٍ في أشتعال

مَنْ رأىٰ وَجْدي لِسُكَّان «الحُجُون» ... قالَ ما هذا هوىً هذا جُنُون
أيها اللُّوَّامُ ماذا تَبْتَغُون ... قلبيَ المضنىٰ وعقلي ذو أعتقال

يـا نـزُولاً بين «جَمْع» و«الـصَّفـا» يـا كِـرامَ الحيِّ يـا أهلَ الـوَفَـا
كـانَ لي قلبٌ حَـمُـولٌ للجَفـا ضَـاعَ مِنِّي بين هـاتِيكَ التِلال

يـا رَعَـاكَ اللهُ يـا ريحَ الـصَّبـا إن تجُزْ يـومـاً علىٰ وادي «قُبـا»
سَلْ أُهيْلَ الحيِّ في تلكَ الـرُّبىٰ هَـجْـرُهـم هٰذا دلالٌ أم مَـلال

جِيرةٌ في هَجْـرِنَـا قـد أسرَفُـوا حـالُنـا مِن بعـدِهِم لا يُـوصَفُ
إن جَفَـوْا أو واصَلـوا أو أتـلَفُـوا حُـبُّهـم في القلـب بـاقٍ لا يَـزَال

هُـمْ كِـرامٌ مـا عَلَيْهم مِـن مَـزِيـد مَـن يَمُتْ في حُبِّهِمْ يَمْضي شهيـد
مِثْلَ مقتُولٍ لَـدَىٰ المـولىٰ الحميـد أحمـدِيٍّ الخُلْقِ محمُـودَ الفِعَـال

صاحِبَ العَصْرِ «الإمَامَ المنتَظَر» مَـن بما يَـأبـاهُ لا يَجْـرِي القَـدَر
حُجَّـةُ اللهِ عـلـىٰ كلِّ الـبَـشَـر خيرُ أهلِ الأرضِ في كلِّ الخِصَـال

مَن إليه الكَـوْنُ قـد ألقىٰ القِيَاد مُجْـرِيـاً أحكَـامَهُ في مـا أراد
إن تَـزُلْ عن طَوْعه السبعُ الشِدَاد خَرَّ منهـا كلُّ سـامي السَمْكِ عَـال

شَمْسُ أوْجِ المجْدِ مِصْباحُ الظلام صَفْـوةُ الـرحمٰن مِن بـين الأنـام
الإمـامُ بـنُ الإمـام بـنُ الإمـام قُـطـبُ أفلاكِ المعـالي والكَـمال

فـاقَ أهلَ الأرض في عـزٍّ وجَـاه وآرتقىٰ في المجـدِ أعلىٰ مُـرتَقَـاه
لـو مُلُـوكُ الأرضِ حَلُّـوا في ذُراه كـانَ أعلىٰ صَفِّهِم صَفُّ النِعَـال

ذُو آقتـدارٍ إن يَـشَـأْ قَلْبَ الطِّبَـاع صَـيَّرَ الإظلامَ طَـبْعَـاً للـشُعَـاع
وآرتـدىٰ الإمكـانُ بُـرْدَ الإمتِنَـاع قـدرةٌ مَـوْهُـوبَـةٌ مِـن ذي الجلال

يـا أمينَ الله يـا شَـمْـسَ الهـدىٰ يـا إمـامَ الخلقِ يـا بَـحْـرَ النـدىٰ
عَـجِّلَـنْ عجِّل فقـد طـالَ المـدىٰ وآضمحلَّ الدين وآستَوْلىٰ الضَلال

هـاكَ يا مـولىٰ الـورىٰ نِعْمَ المجير من مُـواليـكَ «البهـائيِّ» الفقـير
مِدْحَـةً يَعْنُـو لمعنـاهـا «جَـرِيـر» نَـظمُـهـا يَـزري علىٰ عِقْـدِ اللآل

يـا وليَّ الأمـرِ يـا كَهْفَ الـرجَـا مَـسَّـني الـضرُّ وأنتَ المـرتـجـىٰ
والكـريـمُ المُستَجَابُ المُلتَجَـا غيرُ محتـاجٍ إلـىٰ بَـسْـطِ الـسـؤال

❖ ❖ ❖

علينا أن نضع كلَّ شيء في موضعه، وأن لا نبخس الناس أشياءهم أو الأشياء حقَّها وشأنها ومقامها.

والولاء والحبُّ والعاطفة هي من أكثر الأشياء قيمة وخطراً وقدسية، فلا يجوز التفريط فيها، فضلاً عن ٱمتهانها وٱبتذالها من خلال بعض الأفكار والأُطروحات والممارسات...

وهـٰذا التوقير والتعظيم ينبغي أن لا يوفِّر عاطفتنا الشخصيَّة، من حيث كونها أمراً خاصاً لا يشكِّل هتكه ظلماً لأحد...كلَّا، فإذا كان حبُّ المال والبنين وزينة الدنيا أمراً طبيعياً، فهـٰذا لا يعني إلقاء الحبل علىٰ الغارب، وترك الأُمور بلا ضوابط ترسم المجال المسموح به، والحدود التي تشخِّص النطاق الممنوع، فالمكروه والمستحب (في خطوة تالية) لحركتها التربوية في حياتنا.

إنَّ هـٰذه القلوب هي أوعية الحبِّ والعشق، ولم يخلقها الله لنا (ثم كرَّمنا) لِنصرفها كيفما شئنا، ونتركها لتتعلَّق بهـٰذه التفاهات... إنها بيت الله وحرمه وعرش الرحمن المعدُّ لِوَلي الله، فلا تسمَح لِشيء من حُطام الدنيا أو لأحد ـ مهما بلَغ من العظمة ـ أن يتربَّع عليه... وإلّا فأنتَ مغبون! وهـٰذا "الأحَد" قد يتجاوز الدنيا وزينتها ويدخل في مقولة ومنظومة من نوع آخر! فينتحل عنواناً مقدَّساً وصِفَة تبرق بالشرعية، وتتحجَّج بالأنتساب إلىٰ الدين والرسالة، وتُباهي بالتصدي لأُمورها والنهوض بشأنها، والمكابدة والتضحية في سبيلها، حتى يخاله الساذج ولياً من أولياء الله!

من قبيل ما تفعله وتدعيه بعض الجمعيات والمنظمات والأحزاب "الإسلامية"، وبعض الرموز والشخصيات والمسمَّيات، ممن غصبت الولاية وٱنتحلتها، وٱدَّعَت لنفسها ما ليس لها...

وأنت تنزلها هٰذا المنزل وتتعلَّق بها علىٰ هٰذا النحو، وتحبُّها... فهٰذه أيضاً من أبشع صوَر الغفلة والغبن التي تقع عليك، ومن أبشع صوَر الظلم التي تنال «المولىٰ» والحبيب الحقيقي...!



❖ كلمة الختام...

هـٰذه فقرة من "مرداد" المبدع «ميخائيل نعيمة» علىٰ لسان النبي «نوح» عليه السلام يخاطب ٱبنه «ساماً»:

"إنَّ ما حصدَه والدك من السنين حتىٰ الآن كان من الوفرة علىٰ جانب عظيم يا بُنيَّ. و ها هي القبضة الأخيرة من سنابله في ٱنتظار المنجل. أمَّا أنت وأخوَاك وبنوكم وبنو بنيكم فستُجدِّدُون حياة الأرض الثكلىٰ، و سيكون نسلُكم كعَدَدِ رمال البحر حسبما وَعَدَني الله.

إلّا أنَّ خوفاً يساوِرُ ما تبقىٰ في عينيَّ من نور، ويكاد يطفئه قبل أوانه. وذلك أنَّ الناس علىٰ مرِّ العُصور سينسَوْن الطوفان، وجميع الشرور والمخازي التي جلبته علىٰ الأرض. مثلما سيَنْسَوْن الفُلك والإيمان الذي حملها بسلام مئةً وخمسين يوماً، ومكَّنها من الغَلَبَةِ علىٰ اللُجَّة الصاخبة. كذلك لن يذكر الناسُ الحياة الجديدة التي ٱنبثقت من ذلك الإيمان فكانوا بعض أثمارها.

لذلك آمرك يا بنيَّ، أن تبني مذبحاً علىٰ أعلىٰ قِمَّة من هـٰذه الجبال. وتلك القمَّة تدعىٰ من بعد ذلك "قمَّة المذبح". ثم أن تبني حول المذبح هيكلاً يشبه الفُلْك في كُلِّ تفاصيله، وإنما يكون أصغر منها حجماً بكثير. وأن يعرف الهيكل بٱسم "الفُلْك".

علىٰ ذلك المذبح أُريد أن أقدِّم إلىٰ الربِّ ذبيحة شكراني الأخيرة. والنار التي سأُوقدُها هناك أُريد أن تبقىٰ حيَّة إلىٰ الأبد.

أما "الهيكل"، فعلَيك أن تجعل منه ملجأً لجماعة من رجال مختارين، لا يزيد عددهم أبداً علىٰ التسعة ولا ينقص عنها، وهـٰؤلاء سيُعرَفُون بٱسم "رفاق الفلك". وعندما يتوفىٰ اللهُ واحداً، منهم يُرسل من قِبَلِه آخرَ لِيَحِلَّ محلَّه.

وعلى الرفاق ألّا يخرجوا من الملجإ، بل أن يُلازموه كلَّ أيامهم، ممارسين من التقشُّف حياةً كالّتي مارَسناها في الفُلْك، ومحافظين على نارِ الإيمان من الانطفاء، ومنعكفين على الصلاة للعليِّ، من أجل هدايتهم وهداية إخوانهم الناس.

وعليهم ألّا يهتَمُّوا بحاجاتهم الجسدية، فهذه ستُبذَلُ لهم من عَطفِ المؤمنين وإحسانهم.

وكان «سام» يصغي إلى كُلِّ حرفٍ من كلمات أبيه، ويتقبَّلها بلهفة الجائع. إلّا أنه قطع عليه كلامه لِيَعرف منه القصد من تحديد عدَدِ رفاق الفلك بالتسعة، لا أكثر ولا أقل؟

فأجابه الشيخ المثقَل بالسنين:

" ذلك يا بنيَّ هو عدد الذين ركبوا الفلك " !

لكن «ساماً» كان يعرف أنَّ الذين ركبوا الفلك ما زادوا يوماً عن الثمانية، وهؤلاء الثمانية هم أبوه وأمُّه وأخواه وزوجاهما وهو وزوجه. لذلك وَقَعَ في حيرة كبيرة من كلام أبيه. وأدرك «نوحٌ» حيرة ابنه «سام» فقال له مفسِّراً ما أُبهم عليه:

ها أنا يا بنيَّ أبوحُ لكَ بسِرٍّ عظيم.

إنَّ الراكب التاسع دخَلَ الفُلك خِلْسَةً عنكم وعنِّي. فما درى بوجوده أحدٌ غيري، ولا كان يبصره ويسمعه أحدٌ غيري! فكان رفيقي الدائم في الليل والنهار، وبيدِه كانت إدارة الفلك.

لا تسألني عنه زيادة، بل احذر ألّا تفسَحَ له مكاناً في الملجأ الذي أُوصيك به. فقد قال لي إنه سيعود لينقذ العالم من طوفان النار... "

إذا خالَه «ميخائيل نعيمة» تاسعاً من ركاب الفُلك، وعرف أنه الذي أنقذ سفينة «نوح» عليه السلام، وأنه الذي كان يديرها ويدبِّر أمرها سِراً بالخفاء، فنحن نعرفه حقَّ المعرفة...

نعرفه برهان الربِّ الذي حال دون أن يَهُمَّ بها «يُوسُفُ» عليه السلام إذ " همَّت به "، وكان قد عرَفَ له يداً في غيابة الجبِّ وهو ينجيه من حَسَد إخوته وكيدهم، وفي خاتم «سليمان» عليه السلام الذي كان يستعمل به مرَدَة الجنِّ ويسخِّر به الريح، وفي تابوت «موسىٰ» عليه السلام وهو يتهادىٰ علىٰ صفحة النيل، وفي " النار " التي تراءت له في الوادي المقدَّس فسعىٰ علَّه يأتي منها بقَبَس، ثم في عصا تلقفُ ما يأفِكُون، وتضرب البحر فينفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم، وفي بطن الحوت يعلِّم «ذا النون»، «يونس» عليه السلام ويلقِّنه " أن لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين "، ليستجيب الله له وينجيه من الغمِّ، كما فعل من قبل لبِكْر حُجج الله «آدم» عليه السلام وَصاغَ له " الكلمات " ليتوب الله عليه، عرفناه حين أحاطت نار النمرود بـ «إبراهيم الخليل» عليه السلام فصارَت برداً وسلاماً، وحين نزل الكبش من السماء لـ «إسماعيل» عليه السلام يفديه كذبح عظيم...

هو الذي كان مع الأنبياء مُعلِّماً، ومع الرسل سنَداً وعَوْناً، ومع المؤمنين علىٰ مدىٰ التاريخ إماماً وأميراً...

ذلك النور وتلك الروح التي سَمَت في نشأتها الدنيوية حتىٰ كانت قاب قوسين أو أدنىٰ، وشقَّت القمر وأنطقت الحصىٰ بالتسبيح، ثم تقلَّبَت، لا تناسخاً وحلولاً، بل مستمرَّة في امتداد يحكي الأصل، لتُرجِعَ الشمس عن مغيبها، وتقلَع باب «خيبر»، وهـٰكذا حتىٰ تكون «الثاني عشر» من نقباء «بني هاشم»، والخاتم في سلسلة أبواب الرحمة وسفُن النجاة والفُلْك المنجية.

التاسع من رُهبان "قمَّة المذبح"... هو المرتقب الخائف على الدين، وعلى رعيَّته أن تُفتتَن بطول غيْبته، هو السيف الشاهر، والقمر الزاهر والنور الباهر، هو بَدْر التمام ورَبيع الأنام ونَضْرة الأيام، هو الدين المأثور والكتاب المسطور، هو المنتهى إليه مواريث الأنبياء، والموجود لديه آثار الأصفياء، المؤتمن الولي والإمام المهدي، هو صاحب الصمصام وفلَّاق الهام، الذي سيعود لِيَملأها قِسطاً وعدلاً بعد أن تأخذها نيران "الطوفان الأخير" فتمتلئ ظلماً وجَوْراً، هو الأمل الباقي لنجاة البشريَّة وخلاصها مما تغرق فيه، وهو ضالَّتنا جميعاً، وهو الخير (لو كُنَّا نعلم) ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ (هود)... إنه «بقية الله» عليه صلوات الله.

كأني به - عليه السلام -... يهبط من «طُوى» في ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، عدَّة أهل «بدر»، حتى يأتي المسجد الحرام.

فيُصلِّي فيه عند مقام «إبراهيم» أربع ركعات، ويسند ظهره إلى الكعبة المشرفة، تجاه الحجر الأسود، ثم يحمد الله ويثني عليه، ويذكر «النبيَّ» ويصلِّي عليه وآله، ثم يتكلَّم بكلام لم يتكلَّم به أحدٌ من الناس، ويتلو قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (النمل)، فيكون أوَّل مَن يضرب على يده ويُبايعه «جبرئيل» و«ميكائيل»...

لَعَمْري، هل لنا غير أن ننادي:

أين باب الله الذي منه يؤتى، أين وَجْه الله الذي يتوجَّه إليه الأولياء، أين السبب المتَّصل بين الأرض والسماء... يا بن طه والمحكمات، يا بن ياسين والذاريات، يا بن الطور والعاديات...

ليت شعـري أين ٱستقـرَّت بِكَ النَّـوَىٰ، بل أيُّ
أرضٍ تقلُّكَ أو ثرىٰ...
عزيز عليَّ أن أرىٰ الخلق ولا تُرىٰ، ولا أسمع لك
حسيسـاً ولا نجـوىٰ... هل إليك يـا «بن أحمد»
سبيلٌ فـتـلقـىٰ؟ هل يتَّصِل يـومنـا منك بغَـدِه
فنـحظىٰ، متىٰ نرِدُ مناهِلَك الرويَّة فنَرویٰ، متىٰ
ننتقع من عذب مائك فقد طالَ الصـدَىٰ، متىٰ
نغاديك ونراوحك فنقرُّ عيناً...
.... يا «ٱبن الحسن»؟

❖ ❖ ❖



الفهرس

❖ ❖ ❖


الغيبة والتغييب